مجلة معهد الإمام الشاطبي

الاتجاه البلاغي في مقدمات التفاسير

د. عبد الله بن صالح بن سليمان الوشمي

الأستاذ المشارك بقسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

- من مواليد عام ١٣٩٥هـ بمدينة بريدة بالمملكة العربية السعودية.
- تخرج في كلية اللغة العربية والاجتماعية بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بمنطقة القصيم عام ١٤١٨هـ.
- نال شهادة الماجستير من قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٢٣هـ بأطروحته: "**جهود أبي الحسن الندوي في تأصيل منهج الأدب الإسلامي**"، كما نال شهادة الدكتوراه منه عام ١٤٢٨هـ بأطروحته: "**مآخذ النقاد في معاني أبي تمام**".
- من أعماله المنشورة: "**إعجاز القرآن ببلاغته لابن كمال باشا . تحقيق ودراسة**"، "**الحركة النقدية في أوائل الصحف والمجلات السعودية في مرحلة صحافة الأفراد**".
- البريد الشبكي: awashmi@gmail.com

الملخص

ولد علم البلاغة مرتبطاً بتأمل كتاب الله ﷻ ووجوه إعجازه، ونهض الدارسون والباحثون إلى دراسة آراء المفسرين واللغويين وغيرهم في الجوانب البلاغية، واستوعبوا مجمل التفاسير وكتب اللغة والبلاغة.

ومما لحظته أنّ الدراسات اتجهت إلى كتب التفسير، واهتمت بشرح الآيات، ولكن لم تحظ مقدمات المفسرين بالدرس والتحليل.

وينهض هذا البحث إلى دراسة الاتجاه البلاغي وملامح التفكير التي قدمها المفسرون من الناحية البلاغية في مقدماتهم، وذلك بدراسة معنى المقدمة، وصلتها بالتفسير، وعلاقة التفسير بالبلاغة، وحضور الفنون البلاغية وخصائصها في التفسير.

الكلمات المفتاحية: الاتجاه – البلاغة – المقدمات – التفسير – إعجاز القرآن.

المقدمة

الـحمـد لله رب العالـمين والصـلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وأمـا بعد.

فيكتسب علم التفسير قيمته من اتصاله بكتاب الله ﷻ، وذلك يمنحه مزيد شرفٍ يضاف إلى قيمة العلم والمعرفة، حيث إنّ العلوم إنما تتفاضل بقيمة مضامينها، وهو ما تواطأ المفسرون على تأكيده، فالتفسير رأس العلوم الإسلامية كما يرى البيضاوي(١)، وهو رئيس العلوم الدينية ورأسها كما يرى الألوسي والصاوي(٢)، وهو أول العلوم الإسلامية ظهوراً كما يرى الطاهر ابن عاشور(٣).

وقد اتجهت دراسات متنوعة إلى تتبع الاتجاه البلاغي للعلماء والبلاغيين والمفسرين منفردين، أو دراسة رؤى هذا العلم أو ذاك، وكانت كتب التفاسير هي محضنها الرئيس، وهي جهود قيمة، ولكني وجدت ضمن ذلك غياباً لدراسة رؤى المفسرين البلاغية في مقدمات تفاسيرهم، وهي التي يتعين أن تكون موجهات رئيسة لطبيعة تفسيرهم، وهو ما نجد الألوسي يصرح بأنه الركن الأقوم واللازم الأعظم كما لا يخفى على من ذاق طعم العلوم، ولو بطرف اللسان(٤)، حيث كان التفسير مجالاً لظهور ثقافة المفسر، "فالنحوي يكتب في التفسير، فإذا تفسيره كتاب نحو، والفيلسوف يكتب في التفسير، فإذا تفسيره كتاب في علم الكلام، والفقيه يكتب في التفسير فيخرج تفسيره كتاباً في الفقه، والبلاغي يكتب في التفسير، فيضحي تفسيره مرجعاً في البلاغة(٥)"، ومعلوم أنّ متن الكتاب ـ أياً كان فنّه ـ هو

(١) انظر: أنوار التنزيل (١/ ٥)، التحرير والتحبير (١/ ١٤).
(٢) روح المعاني:(١/ ٥)، حاشية الصاوي على الجلالين (١/ ١).
(٣) التحرير والتحبير (١/ ١٣)، وانظر منه (١/ ٢٧).
(٤) روح المعاني (١/ ٥ـ٦).
(٥) لمحات في علوم القرآن (٢١٦ـ٢١٧).

المقصد الرئيس، ولكن للمقدمة مع غيرها من المؤثرات أو العتبات ـ وفق التسمية النقدية الحديثة ـ قيمة في التبصر بمراد المؤلف، فالمقدمة "تساعد ـ إلى جانب نصوص موازية أخرى كعنوان النص واسم المؤلف والإهداء والغلاف وغيرها ـ على التعرف على محيط النص، والإلمام بمقاصد مؤلفه، وكيفية تلقيه من جمهور القراء عموماً، ومع ذلك فإنها ما تزال موضوعاً جديداً على مستوى الدراسة النقدية النسقية، وتستدعي مراكمة الجهود والإسهامات في دراستها[١]".

ويتخصص هذا البحث بدراسة **الاتجاه البلاغي في مقدمات التفاسير**، وذلك بدراسة ما جاء في مقدمات كتب التفسير، حيث لم أقف على دراسة سابقة تتخصص في هذا الموضوع إلا بملامسات عامة، ومنها: مقالة بعنوان: (**معالم التفسير الأدبي في خطاب مقدمات التفاسير**)، وانطلقت من رؤى الدراسات القرآنية، وركز الباحث على التفسير وشرفه ومبادئه[٢]، وأما كتاب (**لمحات في علوم القرآن**)، فإنه تناول الجهود البلاغية في قسم يسير من فصل عام عن الاتجاه اللغوي في تفسير القرآن[٣]، وجاء كتاب (**علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير**)، ليخصَّ الفصاحة والبلاغة وأدوات البيان بموضع قام فيه بسرد فنونها بعيداً عن مقدمات التفاسير[٤]، وتخصص كتاب (**التفسير اللغوي للقرآن الكريم**) في الجانب اللغوي الصرف مع نظر موسع في جوانبه العقدية والتفريق بين مدونات اللغويين التي تناولوا فيها كتاب الله، ولم تحظ البلاغة فضلاً عن مقدمات المفسرين بما ينهض

(١) الخطاب المقدماتي، عبد الواحد بن ياسر، مجلة علامات، (ص ٦٢٦).

(٢) انظر المقالة في: أعمال الندوة العلمية الدولية: التفسير الأدبي للقرآن الكريم ـ كليات رسائل النور نموذجاً ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ المغرب، ٢٠٠٥م، (ص ٢٩٥).

(٣) لمحات في علوم القرآن (٢٤١).

(٤) علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير (٢/ ٢٦٦).

إليه هذا البحث[١]، على حين جاءت دراسات متعددة للمقدمات، ولم تتطرق إلى الجانب البلاغي أو الأدبي لتخصصها في علوم أخرى[٢].

وسوف يدرس هذا البحث موضوعه بدءاً من الصلة بين التفسير والبلاغة، وتعريف المقدمة وأهميتها، ثم التطرق إلى القضايا البلاغية ومنهج العرض فيها، والاهتمام بالمعنى، وإعجاز القرآن، وصولاً إلى الخصائص والفنون البلاغية، ثم تقويم الجهود البلاغية، وذلك في التفاسير التراثية القديمة، وتتميم بنماذج من التفاسير المعاصرة التي توضح الفكرة.

أسأل الله التوفيق والسداد. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(١) انظر التفسير اللغوي (٩- ١٠).

(٢) انظر: إشكال علم التفسير من خلال مقدمات تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور، مجلة الترتيل - مركز الدراسات القرآنية - الرابطة المحمدية للعلماء - المغرب، العدد (٣)، ٢٠١٦م، (ص ١٩٣).

أصول التفسير في مقدمات كتب التفسير، د. سلمي داود إبراهيم داود، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد (٥٣)، ٢٠١١م، (ص ١٧٦).

التأويل في مقدمات كتب التفسير قضايا وإشكالات، د. فريدة زمرد، مجلة التأويل، مركز الدراسات القرآنية - الرابطة المحمدية لعلماء المغرب، العدد الأول، ٢٠١٤م، (ص ٧٧).

تمهيد

الصلة بين التفسير والبلاغة

يمثل التفسير القرآني ميداناً واسعاً تتجلى فيها الجهود البلاغية في تفسير الآيات القرآنية والوقوف على أساليبها وبلاغتها، ولئن تجلتْ الرؤى البلاغية في كتب البلاغة والنقد والأدب، فإنّ ظهورها التطبيقي في الآيات القرآنية بارز مشتهر، وهذا الظهور يتيح للدارس أن يتأمل الصلة بين المفسرين والبلاغيين، وذلك بالنظر في المقدمات ورؤاهم لذلك.

فنجد الطبري يكشف منزلة البيان بأنها من أعظم النعم وأجلها على الإنسان، حيث إنّ "من أعظم نعم الله تعالى ذِكْره على عباده، وجسيم منته على خلقه، ما منحهم من فضل البيان الذي به عن ضمائر صدورهم يبينون[١]"، وهذا يعني أنّ اجتهاد المفسّر في دراسة تصريف القول وتنوع الأساليب متفقٌ مع طبيعة البيان وعلو شأنه، ولذلك نجد ابن عجيبة يؤكد أنه لا يتقدم إلى هذا الخطر الكبير إلا العالم النحرير الذي تضلّع من العلم، عربيةً وتصريفاً ولغةً وبياناً[٢]، وأكّد القونوي أن قدماء المفسرين اكتفوا بما رُوي عن سيد البشر ﷺ في بيان المعاني، وأما عند المتأخرين فقد "حاولوا مع ذلك إبراز مزاياه الرشيقة، حسبما نطقها قواعد علم البلاغة الأنيقة، ليظهر إعجازه لكل جليل وحقير مما لا يطيق به عقول البشر[٣]"، وكان هذا مجالاً ليأتي السعدي جاعلاً البيان وإعجازه دليلاً على مصدر القرآن وأنه كلام الله، فالبلاغة ـ هنا ـ دليل على صدق الإعجاز، لأنّ القرآن "بلغ في البلاغة نهايتها، وفي الحسن غايته، وفي الأسلوب البديع والتأثير العجيب ما هو أكبر الأدلة

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٨ـ ٢٩).

(٢) البحر المديد لابن عجيبة (١/ ٤٩).

(٣) حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي (١/ ٢٢ ـ ٢٣).

على أنه كلام الله وتنزيل من حكيم حميد[١]"، ومثله ابن عاشور الذي نقل عن بعض المتقدمين وأيّد رؤيتهم في أنّ المقاصد العظيمة والمعاني الكبيرة في الكلام لا تحصل إلا بعد التمرس بقواعد البلاغة بفنونها، "ولعلمي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير لأنهما وسيلة إظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني، وإظهار وجه الإعجاز[٢]".

ويتقدم ابن عرفة إلى منزلة البلاغة ليضعها ضمن حقيقة التفسير، "فقولنا: خاصيته كيفية دلالته: هي إعجازه ومعانيه الثابتة وما فيه من علم البديع[٣]"، وهذا ما دفع ابن عطية ليعقد فصلاً يؤصّل فيه لاستنباط دقائق المعاني والكلام على اللغة[٤]، وهو ما تابع الطاهر ابن عاشور العمل في سياقه ليخصص التفسير بأنه علم بيان معاني الألفاظ وما يستفاد منها، ومباحثه تؤدي إلى استنباط علوم كثيرة اجتهد فيها العلماء، "وفيه كثرت مناظراتهم، وكان يحصل من مزاولته والدربة فيه لصاحبه ملكة يدرك بها أساليب القرآن ودقائق نظمه[٥]"، وأما الصابوني فيجعل الأسرار والنكات البلاغية من لطائف التفسير[٦].

وأما طبيعة التفسير ومفهومه مقارنة بالتأويل، فقد جرت مباحثات عدة في هذا المجال، فالتفسير يبحث في كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها ومعانيها، على حين أن التأويل هو سياسة الكلام ووضع المعنى موضعه كما يرى الألوسي[٧]،

(١) تيسير اللطيف المنان (٣).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٩).
(٣) تفسير ابن عرفة (١/ ١٩).
(٤) المحرر الوجيز (١ / ٤٠).
(٥) التحرير والتنوير (١/ ١٣).
(٦) روائع البيان (١/ ١١).
(٧) روح المعاني (١/ ٤)، وينص على حاجة المفسر إلى علم المعاني والبيان والبديع (روح المعاني:١/ ٥-٦) وقال النيسابوري: منهم من أعرض عن التفسير وأقبل على التأويل، وهو عندي ركون إلى الأضاليل=

ويصرح رشيد رضا بأنّ "التفسير له وجوه شتى أحدها النظر في أساليب الكتاب ومعانيه، وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علو الكلام وامتيازه على غيره من القول[١]"، وبهذا يتضح أن الحاجة إلى علوم البلاغة قائمة في المستويين؛ اللفظي أو المعنوي التركيبي.

تعريف المقدمة وأهميتها:

تأتي العناية العلمية بمقدمة الكتب انطلاقاً من القيمة المحورية للمقدمة بوصفها الخطاب التأسيسي لأفكار الكتاب ومنهجيته ووصايا المؤلف النظرية لطريقة القراءة وفهم الدلالات والتبصر بمراد المؤلف.

وأبدأ ذلك برؤية ابن عاشور حول علاقة المقدمة بالتفسير، خاصة أنه استفتح تفسيره بعشر مقدمات متخصصة، وأشار إلى أنّ شرط التفسير أن يشتمل "دقائق من وجوه البلاغة في آيه المفسَّرة بمقدار ما تسمو إليه الهمة من تطويل واختصار، فالمفسر بحاجة إلى بيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربي وخصائص بلاغته وما فاقت به آي القرآن في ذلك حسبما أشرنا إليه في المقدمة الثانية، لئلا يكون المفسر حين يعرض عن ذلك بمنزلة المترجم لا بمنزلة المفسر[٢]"، فالمقدمة في تصور المفسرين جزءٌ من بنية الكتاب، وفيها تأسيس مهم لمضامينه، ووظيفة البلاغة منح التفسير حقيقته الفعلية، وإلا لعاد إلى مفهوم الترجمة وبيان الكلمات لا غير، لأن البلاغة هي التي تذهب إلى خصائص الكلام وتراكيبه.

وهنا نستذكر تعريف مقدمة الكتاب عامة بوصفها "طائفة من الألفاظ قدمت

=وسكون على شفا جرف الأباطيل إلا من عصمه الله وإنه لقليل، ومنهم من مرج البحرين وجمع بين الأمرين (تفسير غرائب القرآن: ٥)، وانظر: زاد المسير (٢٩).

(١) تفسير المنار (١/ ١٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١١٠٢).

أمام المقصود لدلالتها على ما ينفع في تحصيل المقصود[١]"، أو أنها "ما يذكر فيه قبل الشروع في المقصود[٢]"، وكأنّ متن الكتاب لا يكتمل إلا بهذه المقدمة، أي إنها تحمل اشتراطاً بأنّ ما بعدها يتوقف عليها، فهي ليست البداية فحسب، وإنما شرط من شروط فهم ما بعدها أو التعمق في فهمه أو الترقّي في مساراته، وهو ما دعا بعضهم أن يسميها الميثاق التمهيدي[٣]، فهي حاضن أن تضل الأفهام أو سياج تنظيري لتوضيح أفق التلقي ومسارات انطلاق الفكر والنظر في دلالات الكتاب، ولذا اهتمت الدراسات النقدية الحديثة بالمقدمة، فرأى جرار جنات أنّ الوظيفة الأساسية للمقدمة الأصلية هي تأمين قراءة جيدة للنص[٤]، بخلاف جاك دريدا الذي يرى أن المقدمة هي ما يتبقى من الكتابة، وكأنها نفاية شكلية[٥]، على حين يرى غيره أن ترك المقدمة يماثل اللعبة التي نضعها بين يدي طفل دون أن نُعلمه كيفية استعمالها[٦]، ولعل هذا التفاوت عائد إلى طبيعة المادة أو المحتوى، فالتفاوت محتَمل عندما نتكلم عن مقدمات الإبداع، أو عندما نتكلم عن مقدمة إنشائية عامة تنفصل انفصالاً كلياً عن محتوى العلم، وكأنها ـ حينئذ ـ إضافة أو عبء على الكتاب.

وتأتي دلالة المقدمة اللغوية التي تشير إلى مقدمة الجيش ليستثمرها القنوجي، ويلحظ في المقدمة معنى الشجاعة "لأنها تُقدم أنفسها بشجاعتها على أعدائها في الظفر[٧]"، وهذا دالٌ على ما يجب أن تتصف به المقدمة من معانٍ ترفع قيمتها

(١) أبجد العلم (١/ ١٩٨).

(٢) معجم التعريفات (١٩٠).

(٣) الخطاب المقدماتي، عبد الواحد بن ياسر، مجلة علامات، (ص٦٣٠)، وهو تعريف ف . لوجون.

(٤) العتبات النحوية المقدمات (٤٧) بتصرف.

(٥) انظر: الخطاب المقدماتي، عبد الواحد بن ياسر، مجلة علامات، (ص ٦٢٧).

(٦) الخطاب المقدماتي، عبد الواحد بن ياسر، مجلة علامات، (ص ٦٢٨)

(٧) أبجد العلم (١/ ١٩٦).

وتكون بها ركناً رئيساً من الكتاب، وليست هامشاً يمكن الاستغناء عنه، وقد ظهر في التراث الإسلامي العناية بالتوطئة ومقدمات العلم، حيث نجد حاجي خليفة يقول: "جرت عادة المصنفين: بأن يذكروا في صدر كل كتاب تراجم تعرب عنه، سموها: الرؤوس، وهي: ثمانية. الغرض: وهو الغاية السابقة في الوهم، المتأخرة في الفعل. والمنفعة: ليتشوق الطبع. والعنوان: الدال بالإجمال على ما يأتي تفصيله، وهو قد يكون بالتسمية، وقد يكون بألفاظ وعبارات تسمى: ببراعة الاستهلال. والواضع: ليعلم قدره. ونوع العلم: وهو الموضوع، ليعلم مرتبته، وقد يكون جزءاً من أجزائه، وقد يكون مدخلا، كما سبق في بحث الموضوع. ومرتبة ذلك الكتاب: أي: متى يجب أن يقرأ؟ وترتيبه. ونحو التعليم: المستعمل فيه، وهو بيان الطريق المسلوك في تحصيل الغاية[١]"، وهو تقسيم منهجي لمقدمات الكتب، وبيان لأجزائها المتنوعة التي يجمعها وصفها لهم بالرؤوس.

وعند النظر في المقدمة الخاصة بأي كتاب أو بأي علم، فإنّ هدفها الرئيس هو المهم في الدراسة، ومعلوم أنّ "الهدف من المقدمة أن تفتتح أو تبدأ أو تعرف بأسس ومبادئ علم أو فن، في بداية سُلّم تمهيدي وتدريجي صاعد ومتقدم[٢]"، وهنا يتأكد الوعي بقيمة كلّ جزء من أجزاء الكتاب، فقد يأتي في المقدمة أو غيرها من الأجزاء ما يماثل قيمة المحتوى كاملاً خاصة عند توجيهها لتكون إيجازاً للكتاب، أو تكون شرحاً لرسالة الكتاب كاملاً، فالمقدمة مدخلٌ مهم لوضع الهدف الرئيس للمؤلف، وهو ما عبّر عنه بعضهم بأنّ المقدمة تفتح الباب لتدخل الإيديولوجيا، وتتسم بنزعة تعليمية وتقريرية واعتمادها فن الإقناع[٣]، وهو ما تجلى عند

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٣٦).

(٢) عبقرية التأليف العربي (١٠٧).

(٣) الخطاب المقدماتي، عبد الواحد بن ياسر، مجلة علامات، (ص٦٣٠)، وهذا يذكر بتنبيه ابن عاشور في مقدمة تفسيره وتحذيره من تأويل القرآن بمرجعية مذهبية وعصبية (التحرير والتنوير: ١/ ٣١).

ابن عاشور[١]، وصديق خان[٢]، في موقفهما من الحضور العقدي في التفسير.

وقد تجلّى الوعي بمنزلة المقدمة عند بعض المفسرين، حيث نجد ابن عطية يشير إلى أنه يسير على منهج غيره من المفسرين في التقديم حيث قدّم "أشياء قد قدّم أكثرها المفسرون، وأشياء ينبغي أن تكون راسخة في حفظ الناظر في هذا العلم مجتمعة لذهنه[٣]"، ومثله الخازن في تفسيره[٤]، وذلك دون تسمية مَنْ سبقه من المفسرين الذين قدموا لتفاسيرهم، ولكنه يقدم فكرته بأسلوبها المباشر الذي يؤكد المعتاد من منهج المفسرين كما يرى، وأما القاسمي، فإنه وصف منهجه في المقدمة، فقال: "هذا وقد حليت طليعته بتمهيد خطير، في مصطلح التفسير. وهي قواعد فائقة، وفوائد شائقة، جعلتها مفتاحاً لمغلق بابه، ومسلكًا لتسهيل خوض عبابه، تعين المفسر على حقائقه، وتطلعه على بعض أسراره ودقائقه" [٥] ، ومثله ابن عاشور الذي صرّح بأنه بدأ بفوائد قبل التفسير "تكون عوناً للباحث في التفسير، وتغنيه عن معاد كثير[٦]"، فهم يركزون على منهجهم وهدفهم من المقدمة، على حين نجد الألوسي يكتفي بتأكيد قيمة مقدمته وأنها تضمُّ "عدة فوائد يليق أن تُكتب بسواد العيون على صفحات الخدود[٧]"، وهذه القيمة هي التي كانت وراء ما قام به أبو زهرة ليرتفع بمقدمته من حيزها الموجز في مقدمة التفسير إلى أن تستقلّ بكتاب كامل، فأشار إلى أنه كان تصوره لمقدمة في التفسير تعرّف به، ولكن اتسع البحث،

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٣ـ ٣٤).
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن (١٦).
(٣) المحرر الوجيز (١/ ٣٥).
(٤) تفسير الخازن (١/ ٤).
(٥) تفسير القاسمي محاسن التأويل (٥).
(٦) التحرير والتنوير (١/ ٩).
(٧) روح المعاني (١/ ٤).

وكان مقصوداً بالذات لا بالتبع، فجاءت المقدمة في كتاب مستقل[١]، فهي في منهج المؤلف مقدمة للتفسير، ولكنّ أفكارها وأهميتها نقلت وصفها وموقعها من الابتداء الموجز بها إلى أن تكون كتاباً مستقلاً.

(١) زهرة التفاسير لأبي زهرة (١٥).

القضايا البلاغية

أ) المنهج البلاغي وعلاقة المقدمة بالمتن

أولاً: قيمة الدلالة اللغوية:

ظهرت في مقدمات المفسرين العناية الكبيرة بتحقيق الدلالة، ولذلك تواتروا على تأكيد دلالة اللغة وضرورة ضبطها، فالفراء يعتمد منهج العرب في الإيجاز وتقليل الكلام منطَلَقاً رئيساً يثبت بواسطته رأيه، ويفسر حذفهم الألف من بسم الله، لأنها وقعت في موضع لا يجهل القارئ معناه(١)، أي "إنّ اللغة العربية واضحة، وسياق الكلام حارس من الفهم المخطئ(٢)" كما يقول ابن عاشور، ولذلك اعتنى صديق خان بمراتب الدلالة، فاتجه إلى بيان المعنى " العربي والإعرابي واللغوي مع حرص على إيراد صفوة الصفوة مما ثبت من التفسير(٣)"، حيث إنّ المعنى يأخذ بالتصاعد في مستوياته المتنوعة إفراداً وتركيباً، وعليه يتعاظم موقع اللغة ودلالتها في تحقيق التفسير ومعانيه، ولذا كان أبو حيان أصرح حين أكّد أن كتاب سيبويه هو المرقاة وهو الأساس لفهم القرآن(٤)، وحين انتقد السعدي منْ يقتصر على حل الألفاظ اللغوية(٥)، فإنّ ابن عاشور يستعجب من رأي الإمام أحمد، حيث يؤثر عنه "أنه سئل عن تمثل الرجل ببيت شعر لبيان معنى في القرآن فقال: ما يعجبني؛ فهو عجيب، وإن صح عنه فلعله يريد كراهة أن يذكر الشعر لإثبات صحة ألفاظ القرآن كما يقع من بعض الملاحدة(٦)"، وهو استدلال بيّن على أنّ منهج العرب

(١) معاني الفراء (١ـ ٢)، وانظر: تفسير القرآن العظيم (١٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٨٣).

(٣) تفسير غرائب البيان في مقاصد القرآن (٢١).

(٤) البحر المحيط (١/ ١٠١).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢).

(٦) التحرير والتنوير (١/ ٢٣)، ويشرح بإطناب قيمة الشعر ومنهج العرب في فهم الدلالة القرآنية (التحرير والتنوير: ١/ ٢٢).

حاكم لطريقة التفسير، والوصول إلى المعنى المراد، لأن القرآن إنما جاء على نهج العرب في كلامهم.

وعناية المفسرين عالية بدلالة اللغة وقواعدها ومنهج العرب في أساليبها وبلاغتها، وهنا نجد الشوكاني يشرح منهجه، ويصف طريقته بقوله: "أخذي من بيان المعنى العربي والإعرابي والبياني بأوفر نصيب[١]"، ويرفض ابن عاشور الابتعاد عن حقيقة ألفاظ القرآن والدخول في التفسير المذموم، "وإذ قد تقصينا مثارات التفسير بالرأي المذموم، وبينا لكم الأشياء والأمثال، بما لا يبقى معه للاشتباه من مجال، فلا نجاوز هذا المقام ما لم ننبهكم إلى حال طائفة التزمت تفسير القرآن بما يوافق هواها، وصرفوا ألفاظ القرآن عن ظواهرها بما سموه الباطن، وزعموا أن القرآن إنما نزل متضمنا لكنايات ورموز عن أغراض، وأصل هؤلاء طائفة من غلاة الشيعة، عرفوا عند أهل العلم بالباطنية فلقبوهم بالوصف الذي عرفوهم به، وهم يعرفون عند المؤرخين بالإسماعيلية[٢]".

ثانياً: التركيز على الأساليب البلاغية:

يظهر في بعض المقدمات التصريح بقيمة البلاغة، وأنّ فائدتها استجلاء المعنى القرآني، فيفسر السعدي إحكام القرآن بمستوى البلاغة والبيان القرآني[٣]، ويقول ابن عاشور: "هذا كما قلناه آنفا شيء وراء قواعد علم العربية. وعلم البلاغة به

---

(١) فتح القدير (١٢).

(٢) التحرير والتنوير(١/ ٣٣)، ولأهمية الموقف الذي يربط التفسير بالرأي ودلالات اللغة يؤكد ابن عاشور أن شبهة التحذير من تفسير القرآن بالرأي هو "القول عن مجرد خاطر دون استناد إلى نظر في أدلة العربية ومقاصد الشريعة" (التحرير والتنوير:١/ ٣٠)، وانظر: (تفسير القرآن العظيم:١١)، وأما السمرقندي فيستدل بحجية القرآن على أن التأويل واجب، ولكن بمعرفة وجوه اللغة وأحوال التنزيل (تفسير السمرقندي: ٧٢).

(٣) تيسير اللطيف المنان (٦).

يحصل انكشاف بعض المعاني واطمئنان النفس لها، وبه يترجح أحد الاحتمالين على الآخر في معاني القرآن[١]"، فهو يرتفع بقيمة البلاغة لتكون هي المجال الوحيد لفهم المعنى، وبها يستطيع المفسر تحديد المعنى بمساره الصحيح، كما ينقل ابن عاشور عدة نصوص عن أهمية البلاغة للمفسر واستعمال لغة العرب ولسانهم، ويشير إلى كلمة ابن رشد بأن من قال: إنه لا يحتاج لسان العرب فهو جاهل[٢].

وتمثل الأساليب البلاغية ومستوياتها الأدائية هدفاً اتجه إليها المفسرون في مقدماتهم، فاعتنى ابن عاشور بذلك[٣]، وأكّد النحاس أن قصده من تفسيره تفسير الغريب، ورصد ما قاله الجلّة من العلماء باللغة، وما احتاج إليه المعنى من الإعراب والحذف والاختصار والتقديم والتأخير[٤]، وهو تتبع لأساليب البلاغة واللغة ومستوياتها، وهو ما دفع متأخري المفسرين أن يحذو حذوه، فتتبع ابن عاشور أساليب القرآن، ووجدها لا عهد بمثلها في كلام العرب[٥]، وجاء منهج سيد طنطاوي ليركز على استخراج الأساليب البليغة والألفاظ الفصيحة[٦]، وجعل المظهري العناية بالجانب الأدبي من نحو وبلاغة من مميزات تفسيره[٧]، على حين جعل الصابوني الأسرار والنكات البلاغية من لطائف تفسيره[٨]، ومن مقومات منهجه[٩].

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢١).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٠).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٢٠).
(٤) معاني القرآن للنحاس (٤٢).
(٥) التحرير والتنوير (١/ ١٢٣)، التحرير والتنوير (١/ ١٢٥).
(٦) التفسير الوسيط (١/ ١٢).
(٧) تفسير المظهري (١/ ٧).
(٨) روائع البيان (١/ ١١).
(٩) صفوة التفاسير (١/ ٢٠).

ثالثاً: التوسع في الجوانب اللغوية والبلاغية:

عربية القرآن هي مدخل المفسرين إلى قواعد العربية لتكون طريقا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان. ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم(١)، ولا ينظر المفسرون في مقدماتهم إلى النص القرآني الكريم بوصفه نصاً ذا بُعدٍ واحد ينحصر في مستوى دلالي وحيد، وإنما هو نص إلهي أنزله الله للتدبر، وهذا ما منح المفسرين تطلعاً إلى التوسع في قراءته، وتوظيف مختلف معارفهم في سبيل استجلاء معانيه، وهم يؤمنون بأنّه لا منتهى لدلالات القرآن، وأن اجتهاداتهم ما هي إلا محاولة للوصول إلى بعض الهدايات والدلالات، و "مهما تأنق الخبير في تحبير دقائقه السميّة، فما هو إلا كالشرح لشذرة من معانيه الظاهرة، وكالكشف للمعة يسيرة من أنواره الباهرة، إذ لا قدرة لأحد على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب(٢)".

ويصف القرطبي منهجه فيقول: " أكتب فيه تعليقا وجيزاً، يتضمن نكتاً من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيها، ومبيناً ما أشكل منها، بأقاويل السلف، ومن تبعهم من الخلف(٣)"، فهو يصرح بأنّ تفسيره أشبه بالموسوعة العامة، والملحوظ المهم أنّه يركز على اللغات والإعراب والقراءات والجمع بين المعاني وشرح المشكل، وهي أدوات البلاغة ومساراتها،

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٨).

(٢) تفسير القاسمي محاسن التأويل (٤).

(٣) تفسير القرطبي (١/ ٧).

وهو ما ظهر نموذجه عند ابن عطية حيث يقول في مقدمته بفكرة ممتدة: " فزعت إلى تعليق ما يتخيل لي في المناظرة من علم التفسير وترتيب المعاني، وقصدت فيه أن يكون جامعاً وجيزاً محرراً، ...، وسردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية من حكم، أو نحو، أو لغة، أو معنى، أو قراءة، وقصدت تتبع الألفاظ حتى لا يقع طفر كما في كثير من كتب المفسرين، ورأيت أن تصنيف التفسير كما صنع المهدوي رَحِمَهُ اللَّهُ مفرق للنظر، مشعب للفكر وقصدت إيراد جميع القراءات: مستعملها وشاذها، واعتمدت تبيين المعاني وجميع محتملات الألفاظ[(١)]"، وهو بيان عام لمنهجه في التوسع في شؤون اللغة والبلاغة، حيث يُعنى بترتيب المعاني، والقصص، والمقاصد، ويحذر من دلالة الألفاظ على ما يُوهم من الأضداد ومحتملاتها، مع الإيجاز والاقتصاد، وجاء الشنقيطي ليلتزم منهجاً مماثلاً، ومنه: تحقيق بعض المسائل اللغوية والاستشهاد بشعر العرب[(٢)]، وبيان الإجمال الواقع بسبب الاشتراك[(٣)]، والقرائن اللغوية[(٤)].

وعند النظر في وصايا المفسرين من هذه الناحية نجد السمين الحلبي يشترط للمفسر إتقان العلوم الخمسة: الإعراب والتصريف واللغة والمعاني والبيان وبينها تواصل كبير بعد التجويد[(٥)]، ويؤصل ابن عاشور بأن استمداده في التفسير من العربية " فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة، بالسجية والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٣٤).

(٢) أضواء البيان (١/ ٩).

(٣) أضواء البيان (١/ ١٠).

(٤) أضواء البيان (١/ ١٧).

(٥) الدر المصون (٤).

ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقي والتعلم كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها[١].

رابعاً: منهج العرض وحضور الذات:

نجد منهج ابن عاشور في تفسيره منصرفاً إلى تقديم القواعد الكلية العامة لموضوعات الإعجاز والبلاغة، ويؤكد أنه لن يتأتى له التفصيل في جميع الآيات والسور والموضوعات، فهو مهتم بالرؤية المنهجية العامة التي تضبط معاقد النظر البلاغي[٢]، أي إنه ينطلق من رؤيته الشخصية لطبيعة ما يجب أن يكون عليه التفسير، فيشرح منهجه في ذلك، ولذلك نجده يصرح بأن بعض التفاسير البلاغية متكلفة أو مغصوبة "فيتصدى لتطلب مقتضيات لها ربما جاء بها متكلفة أو مغصوبة، ذلك لأنه لم يلتفت إلا إلى مواقع ألفاظ الآية[٣]"، وأنّ بعض النكت لا يتفطن إليها كل واحد[٤].

ويضع الألوسي في مقدمة تفسيره رؤية يجتمع فيها الفخر بنعمة الله، والإشادة بما وفقه الله إليه من الفتح في الفهم والتبصر في معاني القرآن، فيقول: "حتى وقفت على كثير من حقائقه، ووفقت لحل وفير من دقائقه. وثقبت- والثناء لله تعالى- من دره بقلم فكري دراً مثمناً ولا بدع، فأنا من فضل الله الشهاب وأبو الثناء. وقبل أن يكمل سني عشرين جعلت أصدح به وأصدع. وشرعت أدفع كثيراً من إشكالات الأشكال وأدفع وأتجاهر بما ألهمنيه ربي مما لم أظفر به في كتاب من دقائق التفسير. وأعلق على ما أغلق مما لم تعلق به ظفر كل ذي ذهن خطير. ولست أنا أول مَن منّ الله تعالى عليه بذلك، ولا آخر من سلك في هاتيك المسالك. فكم

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٨).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ١١١).
(٤) التحرير والتنوير (١/ ١١٢).

وكم للزمان ولد مثلي[١]"، وهو يُعنى بالمعنى ودفع الإشكالات عن الدلالة وتفسير دقائق التفسير، وذلك ما نجد نظيره عند أبي حيان، حيث يؤكد في مقدمة تفسيره البحر المحيط هذا المعنى، وأنه عكف وأطال في تفسيره، وتعمق في دقائقه، ونظر في التفاسير التي سبقته، فبدأ ـ كما يقول عن نفسه ـ : " ألخّص مطولها، وأحل مشكلها، وأقيد مطلقها، وأفتح مغلقها، وأجمع مبددها، وأخلص منقدها، وأضيف إلى ذلك ما استخرجته القوة المفكرة من لطائف علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، ومن دقائق علم الإعراب المغرب في الوجود أي إغراب، المقتنص في الأعمار الطويلة من لسان العرب، وبيان الأدب، فكم حوى من لطيفةٍ فكري مستخرجها، ومن غريبةٍ ذهني منتجها، تحصلت بالعكوف على علم العربية، والنظر في التراكيب النحوية، والتصرف في أساليب النظم والنثر، والتقلب في أفانين الخطب والشعر[٢]"، وهو شرح واف لمنهجه في البلاغة وأساليب اللغة، ولكنه انطلق من نزعته الشخصية، وارتبط برؤيته الشخصية.

ويظهر هذا المنهج الشخصي عند بعض المفسرين حيث يشرحون بيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، وتناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وأنه لم يغادر سورة إلا بيَّن أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسيره مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فِقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله[٣]، مع تأكيده أنه لن يتمكن من الإلمام والتفصيل، وإنما تفسيره لمحة موجزة دون استقصاء دلائل الإعجاز في آحاد الآيات والسور، فذلك له مصنفاته[٤]، ومثله صديق خان الذي يقول: "حررت بعون الله تعالى وحسن

(١) روح المعاني (١/ ٣).
(٢) تفسير البحر المحيط (١/ ١٠٠).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ٨).
(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٠١).

توفيقه فيما سألوه واستمنحوه كتاباً في أيسر زمان وأحسن تقدير، متوسطاً بين الطويل الممل والقصير المخل، وجمعته جمعاً حسناً بعبارة سهلة وألفاظ يسيرة مع تعرض للترجيح بين التفاسير المعارضة في مواضع كثيرة، وبيان للمعنى العربي والإعرابي واللغوي مع حرص على إيراد صفوة الصفوة مما ثبت من التفسير[١]".

خامساً: الاهتمام بالمعنى:

يمثل المعنى الهدفَ الأعلى لتدبر القرآن وتفسيره، حيث إنّ التفسير يتجه إلى الوصول إلى ما أراده الله من هذه الآية أو تلك ليعمل بها العبد، فتأويل القرآن وتفسيره عائد إلى وجوه، ومنها: منطق العرب ولغاتهم وأشعارهم[٢]، فالمعنى هدف المفسر، ولِيصل إليه يتعين أن يوظف الأدوات اللغوية والبلاغية، وينطلق من معهود العرب وسننهم في كلامهم، ودون ذلك سيبقى المعنى غامضاً غائباً، ولذلك جاء ابن الهائم وجعله منطلقاً ومحفزاً للمفسر وللمتلقي، فيقول: يقبح بمن يحفظ أن يسأل عن معناه فيجهل[٣]، ويرى الماوردي بأن إعجاز القرآن الكبير يدعو إلى أنْ نزيد من التأمل في ألفاظه ومعانيه[٤]، وجعل الطبري من أسس منهجه: بيان المعاني وصيانتها من اللبس، فيقول:" أول ما نبدأ به من القيل في ذلك: الإبانة عن الأسباب التي البداية بها أولى، وتقديمها قبل ما عداها أحرى. وذلك: البيان عما في آي القرآن من المعاني التي من قِبلها يدخل اللبس على من لم يعان رياضة العلوم العربية، ولم تستحكم معرفته بتصاريف وجوه منطق الألسن السليقية الطبيعية[٥]"، ويربط ذلك بالتعمق باللغة العربية، أو ما سمّاه رياضة العلوم

(١) تفسير غرائب البيان في مقاصد القرآن (١٩-٢٠).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٤٢).

(٣) التبيان لابن الهائم (٤٣).

(٤) النكت والعيون (١/ ٣٤).

(٥) تفسير الطبري (١/ ٢٨).

العربية، وذلك حماية لقداسة القرآن أن يتصدى له من لم تكتمل أدواته اللغوية والبلاغية.

ويربط الطبري بين المعنى واللغة ربطاً دقيقاً يستصحب قداسة القرآن ومنزلة اللغة العربية ومنهج العرب في كلامهم، لأن " الواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمد ﷺ، لمعاني كلام العرب موافقة، وظاهره لظاهر كلامها ملائماً، وإن باينه كتاب الله بالفضيلة التي فضل بها سائر الكلام والبيان، بما قد تقدم وصفناه. فإذا كان ذلك كذلك، فبين – إذ كان موجودا في كلام العرب [(١)]" مختلف الفنون البلاغية أن يوجد نظيرها في القرآن، وهو ربط شرطي ملزم، فنزول القرآن بلسان العرب يقتضي أن يماثل سنن كلامهم، ولذلك يتعين ـ والحالة هذه ـ أن يُقرأ بالأدوات اللغوية والبلاغية التي بها يُقرأ ويفهم كلام العرب.

ولأهمية المعنى نصّ المفسرون في مقدماتهم، على أن الحاجة إلى القراءات وأخبار العرب مرتبطة بفهم المعنى والوعي به، فأما الأخبار فلمعرفة دقائق المعاني، وأما القراءات فيحتاج إليها "في معنى الترجيح لأحد المعاني القائمة من الآية أو لاستظهار على المعنى، فذكر القراءة كذكر الشاهد من كلام العرب، لأنها إن كانت مشهورة، فلا جرم أنها تكون حجة لغوية، وإن كانت شاذة، فحجتها لا من حيث الرواية، لأنها لا تكون صحيحة الرواية، ولكن من حيث أن قارئها ما قرأ بها إلا استنادا لاستعمال عربي صحيح، إذ لا يكون القارئ معتداً به إلا إذا عرفت سلامة عربيته[(٢)] "، وهو ربط وثيق بين القراءات وأخبار العرب والمعنى، وإنزالٌ للمعنى منزلة رفيعة يتّأتى من أجلها قبول الرواية من باب الصحة اللغوية لاستنادها إلى كلام العرب دون تصحيحها في ذاتها.

(١) تفسير الطبري (١/ ٣١ـ ٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٤ـ ٢٥).

وتقدم المفسرون في سبيل ضبط المعنى إلى مجال أوسع، فلحظ ابن عاشور غفلة المتقدمين من المفسرين عن تأصيل منهجية الجمع بين المعاني التي يذكرها المفسرون، أو الترجيح بينها، "فلذلك كان الذي يرجح معنى من المعاني التي يحتملها لفظ آية من القرآن، يجعل غير ذلك المعنى ملغى. ونحن لا نتابعهم على ذلك بل نرى المعاني المتعددة التي يحتملها اللفظ بدون خروج عن مهيع الكلام العربي البليغ، معاني في تفسير الآية. فنحن في تفسيرنا هذا إذا ذكرنا معنيين فصاعداً فذلك على هذا القانون. وإذا تركنا معنى مما حمل بعض المفسرين عليه في آيات من القرآن فليس تركنا إياه دالاً على إبطاله، ولكن قد يكون ذلك لترجح غيره، وقد يكون اكتفاء بذكره في تفاسير أخرى تجنبا للإطالة[١]"، وهذا دالٌ على أنّ الترجيح بين المعاني لا يتوقف على قيمة المفسر وتقدمه، وإنما ضابطه احتمال اللفظ ومنهج العرب في كلامهم.

ب) الموقف من إعجاز القرآن وقضاياه:

تجّلت في مقدمات التفاسير عناية مطّردة بإعجاز القرآن، حيث بدأ عدد منها بالإشارة إلى إعجاز القرآن، ومنها: معاني القرآن للنحاس[٢]، والمحرر لابن عطية[٣]، والزمخشري في الكشاف[٤]، والدر المصون للسمين[٥]، وتفسير البغوي[٦]، والخطيب[٧]، والعز بن عبد السلام[٨]،

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٠).
(٢) معاني القرآن للنحاس (٤١).
(٣) المحرر (١/ ٣٣) .
(٤) تفسير الكشاف (٢٣).
(٥) الدر المصون (٣) .
(٦) تفسير البغوي (١/ ٣٣) .
(٧) السراج المنير (٢).
(٨) تفسير القرآن للعز (١/ ٨٤ـ ٨٥).

وأبي السعود[١]، والماوردي[٢]، والإيجي الشافعي[٣]، والقرطبي[٤]، والخازن[٥]، والطبري[٦]، والقونوي[٧]، والشوكاني[٨]، والصابوني[٩]، والمظهري[١٠]، وسيد طنطاوي[١١]، ونجد ابن عاشور يلتفت إلى النظام القرآني العام ومسار إعجازه، فيقول: "الحمد لله على أن بين للمستهدين معالم مراده، ونصب لجحافل المستفتحين أعلام أمداده فأنزل القرآن قانوناً عاماً معصوماً، وأعجز بعجائبه فظهرت يوماً فيوماً، وجعله مصدقاً لما بين يديه ومهيمناً[١٢]"، وهو امتداد للرؤية التراثية حيث يؤكد أبو حيان في مقدمة اتجاهه إلى هذا فيقول عن معجزة الرسول ﷺ: " المخصوص بالقرآن المبين، والكتاب المستبين، الذي هو أعظم المعجزات، وأكبر الآيات البينات، السائرة في الآفاق، الباقي بقاء الأطواق في الأعناق، الجديد على تقادم الأعصار، اللذيذ على توالي التكرار، الباسق في الإعجاز إلى الذروة العليا[١٣]".

ولعل من أسباب الاهتمام باستفتاح القول في مقدمات التفاسير بالحديث عن

(١) تفسير أبي السعود (١/ ٣).
(٢) النكت والعيون (١/ ٢١).
(٣) جامع البيان للإيجي الشافعي (١/ ١٥).
(٤) تفسير القرطبي (١/ ٥).
(٥) تفسير الخازن (١/ ٣).
(٦) تفسير الطبري (١/ ٣٠).
(٧) حاشية القونوي (١/ ٢١).
(٨) فتح القدير (١١).
(٩) صفوة التفاسير (١/ ١٩).
(١٠) تفسير المظهري (١/ ٥).
(١١) التفسير الوسيط (٥).
(١٢) التحرير والتنوير (١/ ٥).
(١٣) تفسير البحر المحيط (١/ ٩٩).

إعجاز القرآن، هو الارتباط بالجانب العقدي للمسلم، لأنّ "العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن؛ إنما نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الإسلام، وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، وكونه المعجزة الباقية، وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول معانديه تحدياً صريحاً[١]". ويمكن النظر في تناول المفسرين في مقدماتهم لموضوع إعجاز القرآن الكريم وفق الآتي:

أولاً: منهج المعالجة

جاءت إشارات عابرة إلى منهج تناول هذه القضية، فجرى تأكيد ارتباطها بالبعد العقدي، وأنها واسعة الجوانب متعددة التفاصيل، وقد حكى البقاعي مستوى الحيرة التي تعصف بعقل المؤمن للوصول إلى وجه الإعجاز، فقال: " إن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتز لمعانيه، وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط، ورهبة مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره، وكلما دقق النظر في المعنى عظم عنده موقع الإعجاز ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلته، وما تلاها خفي عليه وجه ذلك، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متنائية المقاصد، فظن أنها متنافرة فحصل له من القبض، والكرب أضعاف ما حصل له بالسماع من الهز والبسط ربما شككه في ذلك بكثير وزلزل إيمانه، وزحزح إيقانه[٢]"، وهي الحيرة التي كانت مدخلاً عند ابن عاشور لمناقشة مجموعة من قضايا الإعجاز البلاغي، وخاصة فيما يتصل بعلم المناسبات، وكأنه يستحضر الخصومة أو الخلاف بين البقاعي وغيره ممن ردّ عليهم، فيقول ابن عاشور: " على أنه قد لا يكون في موقع الآية من التي قبلها ظهور مناسبة فلا يوجب ذلك حيرة للمفسر؛ لأنه قد يكون سبب وضعها في موضعها أنها قد نزلت على سبب، وكان حدوث سبب نزولها في مدة نزول السورة التي وضعت فيها ، فقرئت تلك الآية عقب آخر آية

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٢).

(٢) نظم الدرر (١١ ـ ١٢).

انتهى إليها النزول[١]"، فاتجه ابن عاشور إلى وضع الأسس لضبط آلية التناول والمعالجة، فيقول: " وإذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها [٢]"، وأما البقاعي فيتخصص في المناسبات، ويؤكد أنه لم يسبق إليها، " فهذا كتاب عجاب رفيع الجناب في فن ما رأيت من سبقني إليه ولا عول ثاقب فكره عليه، أذكر فيه إن شاء الله مناسبات ترتيب السور والآيات، أطلت فيه التدبر ، وأنعمت فيه التفكر لآيات الكتاب[٣]".

ثانياً: تعريف المعجزة

تنطلق أهمية التوقف عند تعريف المعجزة لارتباطها بالبُعد العقدي، فهي ليست تعريفاً للبيان فحسب، وإنما يُبنى توجُّه المفسر على تحرير معناها، ولذا يرى ابن عاشور أن من مقاصد القرآن الرئيسة: " الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول؛ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدى لأجله بمعناه، والتحدي وقع فيه ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه. هذا ما بلغ إليه استقرائي وللغزالي في إحياء علوم الدين بعض من ذلك[٤]"، فالتصديق والإيمان يتعلق بدلالة المعجزة، وارتباطها بمسائلها الأخرى مثل التحدي والتعجيز والانقطاع وغيرها، لاسيما أن إعجاز القرآن يقرن بالإعجاز في غيره من آيات الرسل وبراهينهم، ولذا ينص المفسرون في مقدماتهم على أن المعجزة القولية لا مجال فيها لتوهم السحر[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٨١).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).

(٣) نظم الدرر (١/ ٢).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٤١).

(٥) تبصير الرحمن وتيسير المنان (٣).

ويبني المفسرون على تعريف المعجزة ارتباطها بمعنى الآية، ومن ثم ينتقلون إلى نوع التحدي، وفارق الإعجاز القرآني عن غيره من الكتب السماوية، وعلاقة ذلك ببلاغة القرآن ونظمه، فيقول ابن عاشور: " وإنما سميت آية لأنها دليل على أنها موحى بها من عند الله إلى النبي ﷺ لأنها تشتمل على ما هو من الحد الأعلى في بلاغة نظم الكلام، ولأنها لوقوعها مع غيرها من الآيات جعلت دليلا على أن القرآن منزل من عند الله وليس من تأليف البشر، إذ قد تحدى النبي به أهل الفصاحة والبلاغة من أهل اللسان العربي فعجزوا عن تأليف مثل سورة من سوره[(١)]"، ولذلك نجده عندما يناقش قضايا البلاغة أو مظاهرها القرآنية، ومنها: الفواصل القرآنية، يؤكد صلتها بدلالة الإعجاز، أي إنه ينقل التناول البلاغي من مستواه العلمي المجرد إلى أن يكون مرتبطاً ببعده العقدي، فيعقد الصلة بين التحدي والإعجاز من جهة والوجه الدقيق من إعجاز القرآن الذي صنع هذا التحدي والتعجيز من جهة أخرى، " فأما التحدي بعجز بلغائهم عن معارضته فأمر يرتبط بما فيه من الخصوصيات البلاغية التي لا يستوي في القدرة عليها جميعهم بل خاصة بلغائهم من خطباء وشعراء، وكان من جملة طرق الإعجاز ما يرجع إلى محسنات الكلام من فن البديع ، ومن ذلك فواصل الآيات [(٢)]".

وحين يتجه المفسر إلى اختيار وجه القول بإعجاز القرآن، فإنّه يجتهد في ربطه بدلالة المعجزة، حيث سيفرض معناه الذي ارتضاه وجهة نظره في مسائل الإعجاز الأخرى، ومنها الموقف من الصرفة ـ مثلاً ـ فيعلق عليها ابن عاشور محددا وجه الإعجاز: "أما الذي عليه جمهرة أهل العلم والتحقيق واقتصر عليه أئمة الأشعرية وإمام الحرمين وعليه الجاحظ وأهل العربية كما في المواقف، فالتعليل

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٨٣)، وانظر منه (١/ ٧٦)، وفيه ربط بين الفاصلة ودلالتها البلاغية ووجه الإعجاز فيها .

لعجز المتحدين به بأنه بلوغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغا تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله، وهو الذي نعتمده ونسير عليه[(١)]"؛ بل إنه ينطلق من معنى المعجزة ليناقش ما يتصل بإعجاز العرب وإعجاز غيرهم، وظهر تأكيد ارتباط المظهر البلاغي بالإعجاز، وأنّه أعجز أئمة البلاغة ويلحق بهم غيرهم من باب الأولى، "فكان الاعتبار بفواصله التي هي مقاطع آياته عندهم أهم، لأن عجز قادتهم وأولي البلاغة والرأي منهم تقوم به الحجة عليهم وعلى دهمائهم، فلما كثر الداخلون في الإسلام من دهماء العرب ومن عموم بقية الأمم، توجه اعتناء أهل القرآن إلى ضبط وقوفه تيسيرا لفهمه على قارئيه[(٢)]".

وضمن ارتباطات المفسر بتعريف المعجزة تتضح موافقهم تجاه بعض القضايا المشكلة، ومنها قدْر التحدي، حيث يصرح ابن عاشور بقوله: "أما الإعجاز، فلا يلزم أن يتحقق في كل آية من آي القرآن، لأن التحدي إنما وقع بسورة مثل سور القرآن، وأقصر سورة ثلاث آيات، فكل مقدار ينتظم من ثلاث آيات من القرآن يجب أن يكون مجموعه معجزاً"[(٣)]، فتعريف المعجزة تأسيس لحسم القضايا التالية لها.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٨٣)، ويقول: إنه سهل وسجل، سهل عليهم أن يأتوا بمثل سورة من سوره، وسجل عليهم أنهم لا يفعلون ذلك أبدا، فكان كما سجل، فالتحدي متواتر، وعجز المتحدين أيضا متواتر بشهادة التاريخ إذ طالت مدتهم في الكفر ولم يقيموا الدليل على أنهم غير عاجزين، وما استطاعوا الإتيان بسورة مثله ثم عدلوا إلى المقاومة بالقوة (التحرير والتنوير: ١/ ١٠٣).

(٣) التحرير والتنوير(١/ ٦٢-٦٣)، ويعول ابن عاشور على قيم البلاغة ومفاهيمها ليحكم على نوع الإعجاز ومستواه، فيقول: "إنما وقع التحدي بسورة، أي وإن كانت قصيرة دون أن يتحداهم بعدد من الآيات، لأن من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام وصوغه بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح الكلام وخواتمه ، وانتقال الأغراض ، والرجوع إلى الغرض ، وفنون الفصل ، والإيجاز والإطناب ، والاستطراد والاعتراض ، وقد جعل شرف الدين الطيبي هذا هو الوجه لإيقاع التحدي بسورة دون أن يجعل بعدد من الآيات (التحرير والتنوير: ١/ ١٠٤).

ثالثاً: وجوه الإعجاز

يتضح أنّ أميز ما ناقشه المفسرون في مقدماتهم، هي مسألة القول بوجوه الإعجاز، ومناقشة اختلافاتهم فيها، و" لم أر غرضاً تناضلت له سهام الأفهام، ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى، واقتنعت بما بلغته من صبابة نزراً مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن، فإنه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل وموردها للمعلول والناهل[١]"، ولعل السبب في تواتر المفسرين لمناقشة وجوه الإعجاز هو تحقيق معنى الإعجاز وتعميق الإيمان، وعند النظر في أقوال العلماء في وجوه الإعجاز، نجد الطبري يناقش تفاصيل القول بالإعجاز البياني، ويحسم موقفه بأن المتحدين أقروا جميعهم بالعجز، وأذعنوا له بالتصديق[٢]، وعقد الماوردي فصلاً عن وجوه إعجاز القرآن[٣]، وناقش اختلاف العلماء فيه، ثم صرح بأنه يصح أن يكون كل واحد منها إعجازاً، وليس اختصاص أحدها بأن يكون معجزاً بأولى من غيره، صار إعجازه من الأوجه الثمانية، فكان أبلغ في الإعجاز، وأبدع في الفصاحة والإيجاز[٤]، وناقش الألوسي وجوه الإعجاز من ناحية أنواع الفِرق التي تقول بها، أو بعض رموزها، مع الرد عليهم وإبطالها والاعتراض عليها، فأشار إلى ما يراه بعض المعتزلة، كالنظم الغريب والوزن العجيب، وذهب الجاحظ إلى أن إعجازه هو اشتماله على البلاغة، وقال الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني والنظام: إعجازه بصرف دواعي بلغاء العرب عن معارضته، وقال المرتضى: بسلبهم العلوم التي لا بد منها في المعارضة، وقال الآمدي وغيره: الإعجاز بجملته، ثم عقب الآلوسي:" فهذه الأوجه الأربعة هي الظاهرة في إعجاز

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠١).
(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٠).
(٣) النكت والعيون (١/ ٣٠).
(٤) النكت والعيون (١/ ٣٣).

القرآن والمشهور عند الجمهور الاقتصار على بلاغته وفصاحته حيث بلغت الرتبة العليا والغاية القصوى التي لم تكد تخفى على أهل هذا الشأن حتى النساء[(١)]"، وأما ابن عطية فيناقش اختلاف الناس في إعجاز القرآن، أهو واقع بالكلام القديم أم بما في كتاب الله تعالى من الأنباء الصادقة، والغيوب المسرودة، ثم يقطع بأن "القول الذي عليه الجمهور والحذاق وهو الصحيح في نفسه أن التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه. ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كله علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان، والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن قط محيطاً[(٢)]".

ونلحظ أن قليلاً من المفسرين منْ تعمق في وجه واحد من وجوه الإعجاز ليفصل فيها، حيث كان الغالب عند المفسرين في مقدماتهم عرض الوجوه عامة، وأما التفصيل في وجه واحد فقليل، ومنهم البقاعي، الذي ناقش علم المناسبات بوصفه وجهاً من أوجه الإعجاز البلاغي، حيث إنّ "علم المناسبات الأهم، من مناسبات القرآن وغيره، علم تعرف منه علل الترتيب وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب، وثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه، وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة[(٣)]"، ومن الذين فصّلوا وأطالوا ابن عاشور، حيث ذهب ليقدم الخلاصة العامة من القول بوجوه الإعجاز، وفق ما يراه من ارتباطه بالبلاغة، فيقول: نرى

(١) روح المعاني (١/ ٣٢).
(٢) المحرر الوجيز (١/ ٥٢).
(٣) نظم الدرر (١/ ٥ـ٦).

ملاك وجوه الإعجاز راجعاً إلى ثلاث جهات؛ أولها: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتاً من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة، وثانيها: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهوداً في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة. وثالثها: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن[١]، حيث إنه بعد تجربة عميقة في المناقشة والقراءة والتتبع يخرج إلى ضبط ملاك الوجوه، وكأنه معني ببيان رؤوس الوجوه، وما بعدها يتفرع منها، حتى وإنْ كان ذلك مخالفاً لغيره من العلماء؛ بل إنه يصرح بأنه يشير إلى معان أغفلها بعض العلماء السابقين.

ومما يلحظ أن منطق الجدل ظاهر في مناقشة وجوه الإعجاز، حيث وجدنا الألوسي يستعرض أقوال أهل الفرق المتنوعة، وينشغل بالإبطال والرد والنقض[٢]، وأما البقاعي فيهتم بعلم المناسبات، وينشغل في الرد على العز بن عبدالسلام على موقفه السلبي تجاه علم المناسبات البلاغي[٣]، ثم يربطه بإعجاز القرآن ويعيب على جمهور المفسرين غفلتهم عنه[٤]، وهو الذي لم ينج من النقد، حيث رأى ابن عاشور أنه لم يأت بما فيه مقنع[٥].

وضمن ذلك نجد بعض المفسرين يتتبع بعض القضايا التفصيلية في إعجاز القرآن، كارتباط أسباب نزوله بالإعجاز، ويربطها بالبُعد البلاغي، أو يدلّل بها على

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٤)، بتصرف.

(٢) روح المعاني (١/ ٣٢).

(٣) نظم الدر (١/ ٧-٨).

(٤) نظم الدرر (١/ ٩).

(٥) التحرير والتنوير (١/ ٨)، وينتقد ابن عاشور إغفال بعض المتكلمين في الإعجاز بعض الوجوه المهمة فيه (التحرير والتنوير: ١/ ١٠٤).

منهج العرب[١]، إضافة إلى ربطه تكرار الآيات وتنوع المقاطع والتفنن في المحسنات البديعية بوجوه الإعجاز دون أن تكون ثقيلة على المستمع والقارئ[٢]، ومن القضايا التي انشغل بها ابن عاشور وربطها بالإعجاز البلاغي مسألة تفاوت بلاغة القرآن، فهو يشير إلى تفاوت القراءات العشر الصحيحة المتواترة بما يشتمل عليه بعضها من خصوصيات البلاغة أو الفصاحة أو كثرة المعاني أو الشهرة، وهو تمايز متقارب، على أن كثيراً من العلماء كان لا يرى مانعاً من ترجيح قراءة على غيرها من ناحية بلاغية، كابن جرير والزمخشري[٣]، ثمّ يرتفع بالمسألة البلاغية وصلتها بالإعجاز ليربطها بالبعد العقدي، فيقول: " فإن قلت: هل يفضي ترجيح بعض القراءات على بعض إلى أن تكون الراجحة أبلغ من المرجوحة فيفضي إلى أن المرجوحة أضعف في الإعجاز؟ قلت: حد الإعجاز مطابقة الكلام لجميع مقتضى الحال، وهو لا يقبل التفاوت، ويجوز مع ذلك أن يكون بعض الكلام المعجز مشتملاً على لطائف وخصوصيات تتعلق بوجوه الحسن كالجناس والمبالغة، أو تتعلق بزيادة الفصاحة، أو بالتفنن معجزاً[٤]".

رابعاً: أثر الإعجاز في البلاغة واللغة:

يربط بعض المفسرين الذين يرون الإعجاز في البلاغة، بين وجوه الإعجاز ودلائله من جهة وتطبيقات البلاغة من جهة أخرى، مع أنهم لا يدّعون أنهم

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٨ ـ ٢٩)، تفسير الكشاف (٢٣)، وانظر: التحرير والتنوير (١/ ٦٢)، والقرآن ينبغي أن يودع من المعاني كل ما يحتاج السامعون إلى علمه وكل ما له حظ في البلاغة سواء كانت متساوية أم متفاوتة في البلاغة إذا كان المعنى الأعلى مقصودا وكان ما هو أدنى منه مرادا معه لا مرادا دونه سواء كانت دلالة التركيب عليها متساوية في الاحتمال والظهور أم كانت متفاوتة بعضها أظهر من بعض ولو أن تبلغ حد التأويل وهو حمل اللفظ على المعنى المحتمل المرجوح (التحرير والتنوير: ١/ ٩٣ ـ ٩٤).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٦٢ـ ٦٣).

يقومون بالشرح البلاغي الكامل، فيقول ابن عاشور: إنني لا أستقصي " دلائل الإعجاز في آحاد الآيات والسور، فذلك له مصنفاته، وكل صغير وكبير مستطر. ثم ترى منها بلاغة القرآن ولطائف أدبه التي هي فتح لفنون رائعة من أدب لغة العرب حتى ترى كيف كان هذا القرآن فتْح بصائر، وفتح عقول، وفتح ممالك، وفتح أدب غض ارتقى به الأدب العربي مرتقى لم يبلغه أدب أمةٍ من قبل [١]"، على حين يصرح صديق خان أن بلاغة البلغاء تتقاصر وتتصاغر عن مقام إعجاز القرآن[٢]، وقد وعد الطبري قبلهم بأنه سيبين وجوه البلاغة في أماكنها من تفسير القرآن، فيرى أن فنون بلاغة العرب تقتضي "أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ من ذلك، في كل ذلك له نظيراً، وله مثلاً وشبيهاً[٣]".

ويحاول ابن عاشور ربط هذا المعنى من مفاهيم البلاغة، فيقول عن التفاوت عند البلغاء وفي القرآن: " مرجع هذا الصنف من الإعجاز إلى ما يسمى في عرف علماء البلاغة بالنكت البلاغية، فإن بلغاءهم كان تنافسهم في وفرة إيداع الكلام من هذه النكت، وبذلك تفاضل بلغاؤهم، فلما سمعوا القرآن انثالت على كل من سمعه من بلغائهم من النكت التي تفطن لها ما لم يجد من قدرته قبلا بمثله[٤]"، وهو حرص منه على ربط القول بالإعجاز بأسبابه البلاغية، ولذلك فسّر الإعجاز بمنهج العرب وطريقتهم في النكت البلاغية.

وأما النيسابوري، فإنه يشرح منهجه بأنه التزم إبراز الكنايات وتحقيق المجازات والاستعارات وهذا النوع من الترجمة مما تسكب فيه العبرات[٥]؛ بل إنّ ابن عاشور

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠١).
(٢) تفسير فتح البيان (٩).
(٣) تفسير الطبري (١/ ٢٩).
(٤) التحرير والتنوير (١/ ١١١).
(٥) تفسير غرائب القرآن (٦).

يُرقّي تأويله وتفسيره في الجانب البلاغي، ويشير إلى جهود العلماء السابقين كأمثال أبي بكر الباقلاني وأبي هلال العسكري وعبد القاهر والسكاكي وابن الأثير، حيث وازنوا بين ما ورد في القرآن وما ورد في بليغ كلام العرب من بعض فنون البلاغة، "وليس من حظ الواصف إعجاز القرآن وصفاً جمالياً كصنعنا هاهنا أن يصف هذه الجهة وصفاً مفصلاً لكثرة أفانينها، فحسبنا أن نحيل في تحصيل كلياتها وقواعدها على الكتب المجعولة لذلك مثل: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، والقسم الثالث فما بعده من المفتاح، ونحو ذلك، وأن نحيل في تفاصيلها الواصفة لإعجاز آي القرآن على التفاسير المؤلفة في ذلك، وعمدتها كتاب الكشاف للعلامة الزمخشري ، وما سنستنبطه ونبتكره في تفسيرنا هذا [(١)]"، فهو يلتزم منهجه في الحرص على الجوانب المنهجية، وذكر الأصول والمعاقد الكبرى للإعجاز البلاغي، ويشير إلى جهود غيره، ويحيل إلى الكتب البلاغية المتخصصة المستوعبة، وكأنها محاولة منه لتقديم النماذج الكافية، وتأجيل التفصيل إلى مواضعه عند البلاغيين، بما يعني تعميق الصلة بين البلاغة والتفسير، وهو ما يتفق مع رؤى الزمخشري حين طالب عالم التفسير أن يكون مطلعاً على علوم البلاغة، " فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بزّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرّية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوّة لحييه؛ لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان[(٢)]".

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٦).

(٢) تفسير الكشاف (٢٣).

وبذا تتميز بلاغة القرآن بتحقيق هدف الإعجاز، حيث "جاء في نظمه بأسلوب جامع بين مقصديه، وهما: مقصد الموعظة ومقصد التشريع، فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين ما يحتاجون أن يعلموه، وهو في هذا النوع يشبه خطبهم، وكان في مطاوي معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير أحكاماً كثيرة في التشريع والآداب وغيرها[١]".

ج) الخصائص البلاغية

يؤسس المفسرون لفكرة رئيسة، وهي أن بلاغة القرآن داعم لإعجازه، وأن الإعجاز مرتبط بالبلاغة، وقد استخدم القرآن البلاغة لنقل مقاصده، "ولم يدعُ مع تلك الفصاحة داع إلى ارتكاب ضرورة أو تقصير في بعض ما تقتضيه البلاغة، فبنى نظمه على فواصل وقرائن متقاربة، فلم تفته سلاسة الشعر، ولم ترزح تحت قيود الميزان، فجاء القرآن كلاماً منثوراً، ولكنه فاق في فصاحته وسلاسته على الألسنة، وتوافق كلماته وتراكيبه في السلامة من أقل تنافر وتعثر على الألسنة. فكان كونه من النثر داخلاً في إعجازه[٢]"، فتوصيف بلاغة القرآن غاية مهمة لدى المفسر في مقدمته، حيث إنه يستخدم المنهج البلاغي لوصف البلاغة نفسها، ويحكم على طبيعة الأسلوب والتراكيب، ثم يربطها بالإعجاز.

وعندما يناقش المفسرون خصائص البلاغة وأسرارها، فإنهم يربطون ذلك بالإعجاز، ويفسرون وجه الإعجاز بقوة البلاغة وتماسك التراكيب، ويصِلون تبعاً لذلك إلى تأسيس علوم أو مفاهيم جديدة لترسيخ ذلك، ومنه علم المناسبات الذي أصّله البقاعي، " وبه يتبين لك أسرار القصص المكررات، وأن كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى أدعى في تلك السورة استدل عليه في تلك القصة غير المعنى

(١) التحرير والتنوير (١/ ١١٥-١١٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١١٥).

الذي سيقت له في السورة السابقة، ومن هنا اختلطت الألفاظ بحسب تلك الأغراض، وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم والإيجاز والتطويل مع أنه لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى الذي تكونت به القصة، وعلى قدر غموض تلك المناسبات، وكون وضوحها بعد انكشافها[١]".

كما حرص المفسرون على التنبه إلى ما يتميز به القرآن الكريم، فعقد ابن عاشور فصلاً عن مبتكرات القرآن، ويقول: "قد اشتمل القرآن على أنواع أساليب الكلام العربي، وابتكر أساليب لم يكونوا يعرفونها وإن لذلك التنويع حكمتين داخلتين في الإعجاز: أولاهما ظهور أنه من عند الله؛ إذ قد تعارف الأدباء في كل عصر أن يظهر نبوغ نوابغهم على أساليب مختلفة ، كل يجيد أسلوباً أو أسلوبين والثانية أن يكون في ذلك زيادة التحدي للمتحدين به بحيث لا يستطيع أحد أن يقول إن هذا الأسلوب لم تسبق لي معالجته، ولو جاءنا بأسلوب آخر لعارضته[٢]"، أي إن المفسر يدخل إلى معنى التفسير ودلالات القرآن وهداياته من بوابة البلاغة، وذلك لأن القرآن إنما نزل بلغة العرب، وهنا تكون خصائصه من جنس البلاغة التي جاء بها.

د) الفنون البلاغية:

لم ينظر المفسّر إلى فنون البلاغة إلا من منظور الإعجاز نفسه، فليست علوماً تنحصر في الجمال فحسب، وليست منفصلة عن المعنى، وإنما هي جزء رئيس من الدلالة، ولعلم البلاغة قدر كبير، "وفائدته المعرفة بمعاني كلام الله على الوجه

(١) نظم الدرر (١/ ١٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١١٥)، ويشير ابن عاشور إلى أن الأساليب البلاغية ومستوياتها الأدائية تمثل هدفاً اتجه إليها، وكان من منهجه التركيز على مبتكرات القرآن، وأنه قدم سنة جديدة في الكلام العربي، فالوعي بأسلوب العرب ومنهجهم منح المفسر قدرة ليستبين لحظة الفرق البياني في الأسلوب البلاغي البشري والأسلوب القرآني (التحرير والتنوير: ١/ ١٢٠).

الأكمل[١]"، وهنا نجد السمين الحلبي يذمّ قارئ القرآن دون فهم، ويشبهه باليهود الذين يقرؤون التوراة دون فهم، ويرى أن على اللبيب أن يربأ بنفسه عن هذه المنزلة عندما ينهض إلى قراءة القرآن، "فيطلع من علومه على أهمها وآكدها، وهي بعد تجويد ألفاظه بالتلاوة خمسة علوم: علم الإعراب وعلم التصريف وعلم اللغة وعلم المعاني وعلم البيان[٢]"، ويشترط صديق خان للمفسر شروطاً لا يحل لمن عري منها أن يتعاطى التفسير، ومنها: أن يعرف المعاني والبيان والبديع[٣].

وعندما يتوقف المفسر عند فنٍ أو أسلوبٍ بلاغي، فإنه يركز على سبب وروده في القرآن، وأنه يتجاوز معناه الفني الصرف، ليكون معناه البلاغي المرتبط بهدايات القرآن هو السبب، فيرفض ابن عاشور هدف الإحماض أو العبرة فقط، وإنما هدفه البرهان والبيان. " إن في تلك القصص لعبراً جمة وفوائد للأمة؛ ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويعرض عما عداه ليكون تعرضه للقصص منزهاً عن قصد التفكه بها. من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ، بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها، لأن معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع، هو ذكر وموعظة لأهل الدين فهو بالخطابة أشبه وللقرآن أسلوب خاص هو الأسلوب المعبر عنه بالتذكير وبالذكر في آيات يأتي تفسيرها[٤]"، وهذا يعني أن القرآن إنما جاء على نهج العرب في كلامهم، ولكن دون أن يكون مطابقاً حرفياً؛ بل إن تميزه هو الذي منحه الأسلوب الخاص به، فهو لا يقدم آياته وفق التسلسل المعتاد في الكلام البشري الصرف، وإنما يحافظ على القالب العام، ويفارقه في سمات يختص بها،

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (١/ ٣).

(٢) الدر المصون (٤).

(٣) فتح البيان (١٧).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٦٤).

وواجب حينئذ أن تُستخرج أسراره بمنهج العرب في استخراج أسرار كلامهم، وهو ما عُني المفسرون بتقريره، لأنّ القرآن " يحاور تارة بأوضح عبارة، ويلوح أخرى بألطف إشارة[(١)]"، فالصلة بين الأسلوب البلاغي والمعنى أشهر من أن تشرح، ولكن المفسر يتجاوز تأكيد ذلك إلى تأكيد الأعمق منه، وهو ارتباط المعنى القرآني بالبلاغة، وصلته بإعجاز القرآن، وأنّ فائدته الوعي المفصل بمراد الله. " إن معاني القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة بعيدة المدى مترامية الأطراف موزعة على آياته ، فالأحكام مبينة في آيات الأحكام ، والآداب في آياتها ، والقصص في مواقعها ، وربما اشتملت الآية الواحدة على فنين من ذلك أو أكثر[(٢)] ".

وتبعاً لذلك؛ يؤكد ابن عاشور منهجه في دراسة القرآن، فيقول معلقاً على كلام بعض البلاغيين قبله:"الإعجاز نفسه لا يمكن كشف القناع عنه، وأما وجوه البلاغة فيمكن كشف القناع عنها. واعلم أنه لا شك في أن خصوصيات الكلام البليغ ودقائقه مرادة لله تعالى في كون القرآن معجزاً وملحوظة للمتحدين به على مقدار ما يبلغ إليه بيان المبين. وإن إشارات كثيرة في القرآن تلفت الأذهان لذلك[(٣)]"، وهذا رباط وثيق بين وجوه البلاغة ووجوهها وإعجاز المتحدين، ولذا شرع ابن عاشور بعد ذلك يناقش ضمن دراساته للإعجاز الموقف من التجنيس والمطابقة والالتفات والتشبيه والاستعارة والتمثيل والتقديم والتأخير ثم مراعاة المقام؛ بل امتدّ لاحقاً في هذا السياق لدراسة الترابط بين الآيات، وأساليب القرآن في التفنن[(٤)]، كما نجد ابن عطية يعقد فصلاً في

(١) تفسير أبي السعود (١/ ٣ـ ٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٨).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٠٨)، وقد جاء ذلك في سياق إبطال التدافع بين قول صاحب المفتاح: يدرك ولا يمكن وصفه، إذ نفى الإمكان – وبين قوله: نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها، وهذه إشارة إلى روح السجال الحاضرة.

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١١٦).

الإيجاز[١]، ويشيد أبو السعود بالقرآن وبلاغته، "كما وأنه أيضاً من علو الشأن، وسمو المكان، ونهاية الغموض والإعضال، وصعوبة المأخذ، وعزة المنال؛ في غاية الغايات القاصية، ونهاية النهايات النائية؛ أعز من بيض الأنوق؛ وأبعد من مناط العيوق؛ لا يتسنى العروج إلى معارجه الرفيعة؛ ولا يتأتى الرقي إلى مدارجه المنيعة؛ كيف لا.. وأنه مع كونه متضمناً لدقائق العلوم النظرية والعملية؛ ومنطوياً على دقائق الفنون الخفية والجلية[٢]"، ووجدنا العلماء يتنافسون في التنبه إلى النكت البلاغية المرتبطة بمختلف الفنون، وارتقى الافتخار إلى رصد التجارب الجماعية، حتى وجدنا أبا حيان يفتخر، ويقول: "ما زال بأفقنا المغربي الأندلسي، على بعده من مهبط الوحي النبوي، علماء بالعلوم الإسلامية وغيرها كملة، ...، ومما برعوا فيه علم الكتاب، انفردوا بإقرائه مذ أعصار دون غيرهم من ذوي الآداب، أثاروا كنوزه وفكوا رموزه، وقربوا قاصيه وراضوا عاصيه، وفتحوا مقفله، وأوضحوا مشكله، وأنهجوا شعابه، وذللوا صعابه، وأبدوا معانيه، في صور التمثيل، وأبدعوه بالتركيب والتحليل، فالكتاب هو المرقاة إلى فهم الكتاب[٣]".

علماً أن تفرّق المفسرين إلى فريقين؛ مهتمين بالرواية والمنقول في التفسير، ومجتهدين في التأويل والتدبر، لا يعني عدم اهتمام الفريق الأول بدلالات اللغة، ومهما قيل بأنّ " طرائق المفسرين للقرآن ثلاث، إما الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب مع بيانه وإيضاحه وهذا هو الأصل، وإما استنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا يجافيها الاستعمال ولا مقصد القرآن، وتلك هي مستتبعات التراكيب وهي من خصائص اللغة العربية المبحوث فيها في علم البلاغة ككون التأكيد يدل على إنكار المخاطب أو تردده، وكفحوى الخطاب

(١) المحرر الوجيز (١/ ٥٤).

(٢) تفسير أبي السعود (١/ ٤).

(٣) تفسير البحر المحيط (١/ ١٠٠).

ودلالة الإشارة واحتمال المجاز مع الحقيقة، وإما أن يجلب المسائل ويبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى[١]"، فإنّ المفسرين بجميع مستوياتهم لم يهملوا اللغة ودلالاتها البلاغية؛ لأنّ الاهتمام بالأصل وهو ظاهر المعنى "لا يستلزم إهمال سائر المعاني التي تفيدها اللغة العربية، ولا إهمال ما يستفاد من العلوم التي تتبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعاني والبيان[٢]"، كما عُني الشوكاني بتقريره.

بل إنّ بعض المفسرين سار على نهج إعجاز القرآن، وحاول محاكاة الجزالة والتأنق فيه، فنجد أبا السعود في تفسيره يحتذي منهج القرآن، فيقول عن مسارات منهجه في تفسيره: حاولت" أسلك خلالها بطريق الترصيع على نسق أنيق؛ وأسلوب بديع؛ حسبما يقتضيه جلالة شأن التنزيل؛ ويستدعيه جزالة نظمه الجليل[٣]"، وهذا الحرص على توظيف البلاغة وبيانها، أو الانتقال إلى تمثيل المنهج البياني القرآني قابله موقف واحد لأبي بكر الجزائري الذي جعل من مميزات تفسيره: إخلاءه من المسائل البلاغية[٤]، ورؤيته في ذلك أنه يوجهه إلى عموم الناس، ولاشك أن هذا منهج لا يُسلم له.

تقويم الجهود البلاغية:

حرص بعض المفسرين في مقدماتهم أن يقدموا رؤاهم تجاه تجارب المفسرين السابقين لهم، حيث أشار بعضهم إلى مصادرهم البلاغية، وناقش آخرون رؤى سابقيهم، أو قاموا بالرد على تصوراتهم البلاغية أو ما يتصل باللغة والدلالات، ويمكن الإشارة إلى تواترهم في الغالب على الاعتراف بفضل السابقين، وانطلاقهم

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٢).
(٢) فتح القدير (١١).
(٣) تفسير أبي السعود (١/ ٤).
(٤) أيسر التفاسير (١/ ٦).

من قاعدة رئيسة، وهي: أن " غمض فضلهم كفران للنعمة، وجحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة، فالحمد لله الذي صدق الأمل[١]".

وقد نبّه المفسرون إلى تفاوت المفسرين في التوقف عند المستوى البلاغي في التفاسير التي سبقتهم، فيشير النيسابوري إلى تواتر مؤلفات المفسرين في تراث الأمة، وأنّ منهم منْ اهتم بالمعاني والبلاغة، فيقول: " لقد انتصب جمّ غفير وجمع كثير من الصحابة والتابعين ثم من العلماء الراسخين والفضلاء المحققين والأئمة المتقنين في كل عصر وحين، للخوض في تيار بحاره والكشف عن أستار أسراره والفحص عن غرائبه والاطلاع على رغائبه نقلاً وعقلاً وأخذاً واجتهاداً، فتباينت مطامح همّاتهم، وتباعدت مواقع نياتهم، وتشعبت مسالك أقدامهم وتفنّنت مقاطر أقلامهم فمن بين وجيز وأوجز ومطنب وملغز، ومن مقتصر على حل الألفاظ، ومن ملاحظ مع ذلك حظ المعاني والبيان ونعم اللحاظ "[٢]، ولكنّ السؤال هنا: هل يوجد تفسير بلاغي؟

نجد ابن عاشور يحكم على السابقين بلاغياً، فقال: إنه لا يوجد تفسير تخصص في البلاغة، "وقد نحا كثير من المفسرين بعض تلك الأفنان، ولكن فناً من فنون القرآن لا تخلو عن دقائقه ونكته آية من آيات القرآن، وهو فن دقائق البلاغة هو الذي لم يخصه أحد من المفسرين بكتاب كما خصوا الأفانين الأخرى، من أجل ذلك التزمت أن لا أغفل التنبيه على ما يلوح لي من هذا الفن العظيم في آية من آي القرآن كلما ألهمته بحسب مبلغ الفهم وطاقة التدبر[٣]"، وهو موقف يحمل قدراً من المبالغة، إنْ كان يعني أن سابقيه لم يتخصصوا في التأمل البلاغي، ولكن هذا لا يغيب عن عالم مثل ابن عاشور، ولعله أراد أن تفسيره هو الوحيد المتخصص في

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧).

(٢) تفسير غرائب القرآن (٥).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٨).

البلاغة، وأنّ غيره من المتقدمين المهتمين بالبلاغة إنما اهتموا بها وبغيرها، لاسيما أنه ذكر أنه أقدم على تفسيره مستصحباً أنه في معترك صعب، حيث ألزم نفسه أن يقدم نكتاً لم يُسبق إليها، وأن يقف موقف الحكم بين المفسرين، حيث هناك عدد من المفسرين أعادوا ما يقال إعجاباً به، وآخرون هدموه، وفي كلتا الحالتين ضر كثير[(١)]، وصرّح بالحاجة إلى البلاغة وربط دقائقها بإعجاز القرآن، والاستعمال العربي، وينتقد "خلو معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى إلا عيون التفاسير، فمن مقل مثل: معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج، والمحرر الوجيز للشيخ عبدالحق بن عطية الأندلسي، ومن مكثر مثل الكشاف، ولا يعذر في الخلو عن ذلك إلا التفاسير التي نحت ناحية خاصة من معاني القرآن مثل أحكام القرآن، على أن بعض أهل الهمم العلية من أصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العلق النفيس، كما يصف بعض العلماء كتاب (أحكام القرآن) لإسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي البغدادي [(٢)]".

وأما عنايتهم بمصادرهم اللغوية عامة والبلاغية بخاصة، فقد أشار ابن عاشور إلى أن "أهم التفاسير تفسير الكشاف، والمحرر الوجيز لابن عطية، ومفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، وتفسير البيضاوي الملخص من الكشاف ومن مفاتيح الغيب بتحقيق بديع، وتفسير الشهاب الألوسي، وما كتبه الطيبي والقزويني والقطب والتفتازاني على الكشاف، وما كتبه الخفاجي على تفسير البيضاوي، وتفسير أبي السعود، وتفسير القرطبي، والموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي من تقييد تلميذه الأبي، وهو بكونه تعليقاً على تفسير ابن عطية أشبه منه بالتفسير، لذلك لا يأتي على جميع آي القرآن وتفاسير الأحكام، وتفسير الإمام محمد بن جرير الطبري، وكتاب درة التنزيل المنسوب لفخر الدين الرازي، وربما ينسب للراغب

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٢).

الأصفهاني[١]"، وقد سار المفسرون في مقدماتهم على نهج عام في الأغلب، وهو الحديث عن مصادرهم والتعريف بها، ولئن أشار البقاعي إلى الزبير الثقفي والزركشي والرازي وابن العربي[٢]، فقد صرح البغوي بمصادره عامة دون أن يخصص الجانب اللغوي أو البلاغي[٣]، وأشار الثعالبي في مقدمة تفسيره إلى أن مصدره الرئيس تفسير ابن عطية إضافة إلى الطبري والصفاقسي[٤]، وفعل صاحب مراح لبيد مثلهم بإشارته إلى الفتوحات الإلهية ومفاتيح الغيب والسراج المنير وتنوير المقباس وتفسير أبي السعود[٥]، وذلك دون تخصيص للمنحى البلاغي، أو الشرح لما يتميز به بلاغياً، وأما الخازن فيصرح بكتاب البغوي، ويصفه بالقيمة الكبيرة، وأنه جاء مفرغاً في قالب الجمال، بأفصح مقال، ولذلك انتخب منه خلاصته ونكته[٦]، ويصرح الإيجي الشافعي بمصادره، ويشار إلى أنّ بعض المفسرين يجتهد في المعاني ويقع في الشبهة بسبب عدم فهم المناسبة اللفظية أو المعنوية، ومع اهتمامه بالكشاف فإنه قد يخالفه، "فللمبتدئ حظ كثير من هذا التفسير، وللعالم حظوظ[٧]"، وأما ابن أبي زمنين فيجعل تفسير يحيى بن سلام أساسه، وأنه اهتم باللغة والإعراب[٨]، وأما الثعلبي، فيشير إلى أنه لم يجد تفسيراً مقنعاً، فألف تفسيره مستخرجاً "من نيف ومائة كتاب مجرّبات مسموعات، سوى ما التقطته من التطبيقات، والأجزاء المتفرّقات وتلقّيته عن أقوام من المشايخ، وهم قريب من ثلاثمائة مستمع نسقته بأبلغ ما صرت عليه من الجمع والترتيب، وسعة

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧).
(٢) نظم الدرر (١/ ٦).
(٣) تفسير البغوي (١/ ٣٤).
(٤) تفسير الثعالبي (١/ ١١٨).
(٥) مراح لبيد (٥).
(٦) تفسير الخازن (١/ ٣).
(٧) جامع البيان (١/ ١٥ ـ ٢١).
(٨) تفسير القرآن العزيز (١/ ١١١).

الإثبات بغاية التنسيق والترتيب، وسيبقى لكلّ مؤلّف كتابًا في فن قد سيق إليه أن لا يعدم كتابة بعض الخلال التي أنا ذاكرها إمّا استنباط شيء إن كان مقفلًا أو جمعه إن كان متفرّقًا، أو شرحه إن كان غامضًا، أو حسن نظم تأليفه، أو إسقاط شيء وتطويل. وأرجو أن لا يخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التي ذكرتها والله الموفّق لما نويت وقصدت [1]"، على حين يصرح السمين الحلبي بمصادره، ثم يقول: " لم أترك وجهاً غريباً من الإعراب وإن كان واهياً، ومقصودي بذلك التنبيه على ضعفه حتى لا يغتر به من اطلع عليه، وذكرت كثيراً من المناقشات الواردة على أبي القاسم الزمخشري وأبي محمد بن عطية ومحب الدين أبي البقاء، وإن أمكن الجواب عنهم بشيء ذكرته[2].

ويصرح النيسابوري بأنه اعتنى بتفسير الرازي والكشاف مع اهتمام بتفسير الألفاظ والمشكلات والمتجانسات، وتصريح بالكنايات، وتحقيق المجازات والاستعارات، وقلما يفطن له الناشئ الواقف على متن اللغة العربية، فضلاً عن الدخيل القاصر في العلوم الأدبية[3]، وأما الصاوي فيشير إلى أنه اهتم بالحاشية على الجلالين، لأنه وجدها ملخصة من نحو عشرين كتاباً من كتب التفسير التي بين أيدينا[4]، وأما الصابوني فلم يسمِّ، ولكنه صرح أنه ليس من جهده فحسب، وإنما هو نتاج أدمغة وتلخيص ما قاله المتقدمون والمتأخرون، ومنهم اللغويون[5].

ويمكن ضرب مثال بكتاب الكشاف للزمخشري، بوصفه الكتاب الأشهر في اهتمامه بالبلاغة، فنجد ابن عرفه يشير إلى عناية الزمخشري بالبلاغة مقابل الطبري الذي هو إمام المفسرين، ومع ذلك لم يشرْ إلى تطبيقات البديع البلاغية، حيث كان

(١) الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي (٥).
(٢) الدر المصون (٥).
(٣) تفسير غرائب القرآن (٦ـ ٧).
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين (١/ ١).
(٥) روائع البيان (١/ ١٢).

مذكوراً في طبعه، وإنْ لم يكتبه[١]، على حين يشير ابن عاشور إلى أن الزمخشري وابن عطية غاصا على المعاني، ولكن منحى البلاغة والعربية بالزمخشري أخص[٢]، وأما المظهري فيصرح بأن الزمخشري وأبا حيان اختصوا بالبلاغة واللغة[٣]، ويحتفي السمين الحلبي بمناقشاته الكثيرة للزمخشري[٤]، وأما الإيجي فقد اعتمد الكشاف من مصادره مع شروحه، وهو الذي لم يزل قلبه مشغوفاً بكشف نكت الكشاف[٥]، واستعرض السيوطي حركة التفسير ومؤلفات العلماء طيلة القرون، ثم أشار إلى فرقة مختصة بالنظر في البلاغة وعلومها مما يدرك بها وجه الإعجاز وأسرار البلاغة، وجعل الزمخشري "هو سلطان هذه الطريقة، والإمام السالك في هذا المجاز إلى الحقيقة، فلذا طار كتابه في أقصى الشرق والغرب، ودار عليه النظر إذ لم يكن لكتابه نظير في هذا الضرب"، وتلاه بشرح حول الحواشي والمؤلفات التي ناقشت أو حاورت هذا الكتاب، ومنها كتاب السيوطي نفسه[٦].

وفي سياق هذا جاءت رؤاهم في تقويم جهود بعضهم، فنجد أحكامهم على تفاسير سابقيهم متنوعة، ويمكن البدء برؤية صديق خان حول ظاهرة التفصيل في الجانب الذي يتقنه أو يتخصص به المفسر فيقول: " ومنهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن واقتصر فيه على ما تمهر هو فيه، كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير، مع أن فيه تبيان كل شيء[٧]"، فيظهر في بعض التفاسير ميلٌ إلى جانب علمي معين يعكس ما يتميز به المفسر، وتبعاً لذلك يتساءل المتأخرون عن التفاسير

(١) تفسير ابن عرفة (١/ ١٩).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٦).
(٣) تفسير المظهري (١/ ٦).
(٤) الدر المصون (٥).
(٥) جامع البيان (١٦، ٢١).
(٦) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (٣).
(٧) فتح البيان (١٥).

ومميزاتها، وينهض بعضهم لاستدراك ما فات عن بعضهم، فأبو حيان يصرح بأنه ينتخب المميز من تفاسير سابقيه، " فعكفت على تصنيف هذا الكتاب، وانتخاب الصفو واللباب، أجيل الفكر فيما وضع الناس في تصانيفهم، وأنعم النظر فيما اقترحوه من تآليفهم، فألخص مطولها، وأحل مشكلها، وأقيد مطلقها، وأفتح مغلقها، وأجمع مبددها، وأخلص منقدها[١]"، ومثله ابن الجوزي[٢]، وأما أبو السعود فمصادره الرئيسة، هما تفسير الكشاف وأنوار التنزيل ومنهجه في تفسيره: "أن أنظم درر فوائدهما في سمط دقيق؛ وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق؛ وأضيف إليها ما ألفيته في تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق؛ وصادفته في أصداف العيالم الزاخرة من زواهر الدقائق؛ وأسلك خلالها بطريق الترصيع على نسق أنيق؛ وأسلوب بديع؛ حسبما يقتضيه جلالة شأن التنزيل؛ ويستدعيه جزالة نظمه الجليل[٣]".

وجاء أبو السعود مشيداً بسابقيه، فقال: "وأما المتأخرون المدققون فراموا – مع ذلك – إظهار مزاياه الرائقة، وإبداء خباياه الفائقة؛ ليعاين الناس دلائل إعجازه؛ ويشاهدوا شواهد فضله وامتيازه عن سائر الكتب الكريمة الربانية والزبر العظيمة السبحانية؛ فدونوا أسفارا بارعة جامعة لفنون المحاسن الرائعة؛ يتضمن كل منها فوائد شريفة؛ تقر بها عيون الأعيان؛ وعوائد لطيفة يتشنف بها آذان الأذهان؛ لا سيما (الكشاف)؛ و(أنوار التنزيل)[٤]"، وحين ينتقد ابن عاشور التفسير الباطني الشيعي ويرى أن لهم تكلفات ثقيلة[٥]، وينتقد صديق خان عدة فرق في الهند تفسر

(١) تفسير البحر المحيط (١/ ١٠٠).
(٢) زاد المسير (٣١).
(٣) تفسير أبي السعود (١/ ٤).
(٤) تفسير أبي السعود (١/ ٤).
(٥) التحرير والتنوير (١/ ٣٣ـ ٣٤).

القرآن برأيها[١]، فإن جزءاً من النقد انصرف إلى ما أنجزه المتقدمون أيضاً، فابن عاشور ينتقد منهج بعض المتقدمين في خلطهم بين الإعجاز والبلاغة: " وكنت أرى الباحثين ممن تقدمني يخلطون هذين الغرضين خلطا، وربما أهملوا معظم الفن الثاني، وربما ألـمّـوا به إلماماً وخلطوه بقسم الإعجاز، وهو الذي يحق أن يكون البحث فيه من مقدمات علم التفسير، ولعلك تجد في هذه المقدمة أصولاً ونكتاً أغفلها من تقدموا ممن تكلموا في إعجاز القرآن مثل الباقلاني، والرماني، وعبد القاهر، والخطابي، وعياض، والسكاكي، فكونوا منها بالمرصاد، وافلوا عنها[٢]"، وأعلى صديق خان من نقده لمن يتكلمون في القرآن بلا سند ولا نقل، وهم لا يقيمون منزلاً " للأصول الشرعية، والقواعد العربية، كتفسير محمود بن حمزة الكرماني ضمّنه أقوالاً هي عجائب عند العوام، وغرائب عما عهد عن السلف الكرام، وهي أقوال منكرة لا يحل الاعتقاد عليها ولا ذكرها إلا للتحذير[٣]".

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن (١٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠١).

(٣) فتح البيان (١٥).

الخاتمة

تعد التفاسير القرآنية من أهم ما أنتجه العقل الإسلامي في مرّ العصور، وما زالت في تصاعد مستمر، وذلك مرتبط بالواجب الديني الذي يحثنا على تدبر كتاب الله وقراءته.

وتمثل مقدمات المفسرين بداية مهمة في قراءة التفسير نفسه، وقد اجتهدت في هذا البحث لأدرس الاتجاه البلاغي فيها، وظهر لي عدد من النتائج، ومن أبرزها:

- حظيت مقدمات المفسرين بالتعريف بمناهج المفسرين التقليدية، وكان للرؤية البلاغية حظاً متفاوتاً ضمن اهتمامهم باللغة العربية، ولكن ظهر عند بعضهم وعي وتصريح بهدف مقدمته، ومنهم: ابن عاشور والقاسمي.
- نهضت مقدمات بعض المفسرين ببعض وظائف المقدمة المهمة، ومنها: وضع الأصول والتوجيهات، وتوضيح أسباب تأليفه، وذكر المعاناة في ذلك، وتوضيح مناهج السابقين، أو نقدها.
- لم تبن المقدمات وفق خطة منهجية تراتبية، حيث لم تكن أصلاً في العرف التراثي، ولذلك غاب عن كثير منها توصيف المنهج والأدوات، ولم تتضمن المفاتيح العامة والخطط المعرفية للتناول الدلالي للنص القرآني.
- أشهر المفسرين اهتماماً بالبلاغة العربية، هو الزمخشري، ويشترك معه في هذا الاهتمام، وليس الشهرة، كل من: أبي السعود، وابن عطية، والبقاعي، والسمين الحلبي، والألوسي، إضافة إلى بعض أصحاب الحواشي على تفسير البيضاوي مثل: الخفاجي وقاضي زاده، ومن المعاصرين: ابن عاشور.
- يظهر أن من أبرز أسباب الخفوت في التناول البلاغي عند متقدمي المفسرين، وعند مدرسة الأثر منهم خاصة، هو التخوف من القول بالرأي، والنظر إلى البلاغة بوصفها مظهراً لذلك، أو سبباً يؤدي إليه، وهو ما نافح عنه مؤيدوا

التفسير البلاغي. إضافة إلى سبب يخص تفاسير المتقدمين، وهو أنّ علم البلاغة إنما تمت أصوله وقضاياه لدى المتأخرين، لذا لم يظهر بصورة واضحة عند المتقدمين.

- يؤسس المفسرون المهتمون بالبلاغة لعملهم بأنه مرتبط بحقيقة التفسير، وكاشف لطبيعة الإعجاز، ومؤثر في الوعي بمعنى القرآن وبيانه، ولذلك طالبوا بأن يكون العلم بالبلاغة شرطاً من شروط التفسير، وربطوا ذلك بسنة العرب في كلامهم.
- ظهر عند عموم المفسرين المهتمين بالبلاغة: التوقف البلاغي عند الآيات، ولكن ابن عاشور تميز عنهم بالحرص على منهجية التناول البلاغي، ولذلك يصرح بأنه لن يتوقف عند آحاد الآيات والسور، وأنه سيضع ملاكاً للقضايا، ومعاقد وأصولاً للنظر، حتى قال عن تفسيره: " فيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير[(١)]"، ولذلك جاءت مقدماته العشر تفصيلاً لكثير من قضايا اللغة والبلاغة.
- توفر للدرس البلاغي في التفسير سجالاً في الرؤى ووجهات النظر، ومنه: الأحكام المتفاوتة لتقويم الجهود، وذكر المصادر، وتوصيفها.
- قد يُفسّر خفوت البلاغة عند بعض المفسرين بأنه نتيجة تخصيصه كتاباً آخر تحدث فيه عن البلاغة وتوسع فيها، ومنهم السيوطي في الإتقان، وإن كان هذا لا يطرد فابن عاشور له موجز تاريخ البلاغة وله التفسير.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) التحرير والتنوير (١/ ٨).

فهرس المصادر والمراجع

١. **أبجد العلم**، صديق بن حسن القنوجي، فهرسة عبد الجبار زكار، وزارة الثقافة ـ دمشق، ١٩٧٨م.

٢. **إشكال علم التفسير من خلال مقدمات تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور**، مجلة الترتيل ـ مركز الدراسات القرآنية ـ الرابطة المحمدية للعلماء ـ المغرب، العدد ٣، ٢٠١٦م.

٣. **أصول التفسير في مقدمات كتب التفسير**، د. سلمي داود إبراهيم داود، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية السعودية، العدد ٥٣، ٢٠١١م.

٤. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين بن محمد الشنقيطي، إشراف بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد.

٥. **أعمال الندوة العلمية الدولية: التفسير الأدبي للقرآن الكريم ـ كليات رسائل النور نموذجاً** ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ المغرب، ٢٠٠٥م.

٦. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى تفسير البيضاوي**، ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي، تحقيق محمد صبحي حلاق ومحمد أحمد الأطرش، دار الرشيد ـ بيروت ومؤسسة الإيمان ـ بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٧. **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، أبو بكر الجزائري، ط٣، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٨. **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩م.

٩. **التأويل في مقدمات كتب التفسير قضايا وإشكالات**، د. فريدة زمرد، مجلة التأويل، مركز الدراسات القرآنية ـ الرابطة المحمدية لعلماء المغرب، العد الأول، ٢٠١٤م.

١٠. **تبصير الرحمن وتيسير المنان وبهامشه: نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن للسجستاني** – الناشر: مطبعة بولاق – مصر، الطبعة الأولى، ١٢٩٥هـ.

١١. **التبيان في تفسير غريب القرآن**، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عماد المعروف بابن الهائم، تحقيق ضاحي عبد الباقي محمد، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٢. **تفسير ابن عرفة**، محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، تحقيق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ م.

١٣. **تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مرايا القرآن الكريم**، أبو السعود محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٤. **تفسير البحر المحيط**، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية–بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٥. **تفسير البغوي معالم التنزيل**، أبو محمد البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة ـ الرياض.
١٦. **تفسير التحرير والتنوير**، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر ـ تونس، ١٨٨٤م.
١٧. **تفسير الثعالبي المسمى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن**، أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٨. **تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل**، علاء الدين علي البغدادي، تحقيق عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
١٩. **تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم**، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٢٠. **تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف – عصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٢١. **تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل**، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد باسل السود، دار الكتاب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٢٢. **تفسير القرآن العزيز**، أبو عبد الله محمد ابن أبي زمنين، تحقيق: حسين بن عكاشة ومحمد مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
٢٣. **تفسير القرآن العظيم**، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، دار ابن حزم ـ لبنان، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
٢٤. **تفسير القرآن الكريم المشتهر باسم تفسير المنار**، محمد عبده، ط ٢، ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م.
٢٥. **تفسير القرآن**، سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، تحقيق د. عبد الله الوهيبي، دار ابن حزم– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
٢٦. **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة ـ بيروت، ط٣، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.
٢٧. **التفسير اللغوي للقرآن الكريم**، مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ـ الدمام، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.
٢٨. **تفسير المظهري**، محمد ثناء الله العثماني المظهري، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
٢٩. **التفسير الوسيط**، محمد سيد طنطاوي، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٣٠. **تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، نظام الدين الحسن النيستبوري، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
٣١. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مكتبة العبيكان ـ الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
٣٢. **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢ – ٢٠٠١م.
٣٣. **جامع البيان في تفسير القرآن**، محمد بن عبد الرحمن الإيجي الشيرازي الشافعي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٣٤. **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي أبو عبد الله، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٣٥. **حاشية الصاوي على الجلالين**، طبع على ذمة مصطفى أفندي، المطبعة العامر الشرفية، الطبعة الأولى، ١٣١٨هـ.
٣٦. **حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي**، تصحيح عبد الله محمود عمر، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
٣٧. **الخطاب المقدماتي**، عبد الواحد بن ياسر، مجلة علامات، مج ١٢، ج ٤٧.
٣٨. **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، أبو العباس شهاب الدين المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم ـ دمشق.
٣٩. **روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن**، محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي ـ دمشق، ط٣، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
٤٠. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٤١. **زاد المسير في علم التفسير**، جمال الدين عبد الرحمن ابن الجوزي، المكتب الإسلامي ودار ابن حزم ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
٤٢. **زهرة التفاسير**، أبو زهرة، دار الفكر العربي، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
٤٣. **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير**، الإمام الخطيب الشربيني.
٤٤. **صفوة التفاسير**، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم ـ بيروت، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٧١م.
٤٥. **عبقرية التأليف العربي علاقات النصوص والاتصال العلمي**، كمال عرفات نبهان، مكتبة الإسكندرية ـ مصر، ٢٠١٥م.

٤٦. **العتبات النحوية المقدمات أنموذجا**، توفيق العلوي، مجلة مقابسات، المعهد العالمي للعلوم الإنسانية ـ جامعة تونس، ٢٠١٤م، مج ٦.
٤٧. **علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير**، محمد صفا شيخ إبراهيم حقي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
٤٨. **فتح البيان في مقاصد القرآن**، صديق حسن خان القنوجي، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، ـ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
٤٩. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، تحقيق :يوسف الغوش، دار المعرفة – بيروت، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.
٥٠. **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، حاجي خليفة، اعتنى به: محمد شرف الدين، دار إحياء التراث العربي.
٥١. **الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي**، أحمد أبو إسحاق الثعلبي، تحقيق: سيد حسن كسروي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.
٥٢. **لمحات في علوم القرآن**، د.محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط٣، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٥٣. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.
٥٤. **مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد**، محمد بن عمر نووي الجاوي، تحقيق: محمد أمين الصناوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
٥٥. **معاني الفراء**، يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب ـ بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٥٦. **معاني القرآن**، أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى – مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٥٧. **معجم التعريفات**، السيد الشريف الجرجاني، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة ـ القاهرة.
٥٨. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي ـ بيروت، ١٤٠٤ – ١٩٨٤.
٥٩. **النكت والعيون**، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية ومؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت.
٦٠. **نواهد الأبكار وشوارد الأفكار**، عبد الرحمن السيوطي، أحمد حاج محمد عثمان، رسالة دكتوراه ـ لم تطبع، جامعة أم القرى – كلية الدعوة وأصول الدين المملكة العربية السعودية (١٤٢٣هـ ـ ١٤٢٤هـ).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص	٢٦٥
المقدمة	٢٦٦
التمهيد: الصلة بين التفسير والبلاغة	٢٦٩
تعريف المقدمة وأهميتها	٢٧١
القضايا البلاغية	٢٧٦
أ ـ المنهج البلاغي وعلاقة المقدمة بالمتن	٢٧٦
أولاً: قيمة الدلالة اللغوية	٢٧٦
ثانياً: التركيز على الأساليب البلاغية	٢٧٧
ثالثاً: التوسع في الجوانب اللغوية والبلاغية	٢٧٩
رابعاً: منهج العرض وحضور الذات	٢٨١
خامساً: الاهتمام بالمعنى	٢٨٣
ب ـ الموقف من إعجاز القرآن وقضاياه	٢٨٥
أولاً: منهج المعالجة	٢٨٧
ثانياً: تعريف المعجزة	٢٨٨
ثالثاً: وجوه الإعجاز	٢٩١
رابعاً: أثر الإعجاز في البلاغة واللغة	٢٩٤
الخصائص البلاغية	٢٩٧
الفنون البلاغية	٢٩٨
تقويم الجهود البلاغية	٣٠٢
الخاتمة	٣١٠
فهرس المصادر والمراجع	٣١٢
فهرس الموضوعات	٣١٦